حذاء بنفسجي بشرائط ذهبية

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ ـ ٢٠١٩م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/١٧٦٣٩

بطاقة فهرسة

الفيل ، سمير

حذاء بنفسجي بشرائط ذهبية: المجموعة قصصية/ سمير الفيل، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

١٢٢ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٧-١٨٤-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١ - القصص العربية القصيرة

أ - العنوان

٨١٣,٠١

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

عمرو الحو

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق والإخراج

أحمد البسيوني

سمير الفيل

حذاء بنفسجي بشرائط ذهبية

قصص

إهداء

إلى البحر..

يمكنه أن يسرب أمواجه لتهدهد روحي المتعبة.

إلى البحر..

غواية متجددة، حيث الغوص في الأعماق دائما.

إلى البحر..

مساحات من الزرقة تحتل الأفق البعيد.

حذاء بنفسجي بشرائط ذهبية

طقطق الدرج، وهو يهبط متجها إلى دكانه الصغير في السوق القديم، بالقرب من سوق السمك الملاصق للكوبري المعدني ذي المفصلات الفولاذية.

فتح الأبواب، ورش الماء على الأعتاب، وجلس يستفتح يومه بقراءة أوراد، وأذكار، ما لبث المبخراتي أن جاء بمنقده النحاسي، ودار في المكان، وقد وضع حفنة البخور الجاوي، وزر العفريت، وقطعة الشبه التي انصهرت، وفاحت بروائح ذكية.

ظل دقائق يقلب فكره في أجر المسكن، وفي طعام الغذاء، ونظرات زوجته سكينة التي كانت تقع بين اللوم والاتهام.

الحال واقف، والنقود قليلة، أما الأفواه الجائعة فلا تشبع. ياله من يوم عصيب، غريب، ينظر للسماء فيجدها بلون رصاصي موحش، وسبحان الستار. إنه يؤمن أن الله يرزق الدود في الحجر، فما بالك بالبشر ؟!

الخميس الماضي عاشر زوجته، ودلكت له ظهره المتعب بيديها القويتين قبل أن يخلد للنوم، وفي وسط النعاس جاءه جن قوي طلب منه أن يبحث عن شجرة كافور ضخمة، تحتها كنز.

فعل ذلك على الفور، ودس يده تحت الجذع فراعه أن وجد حقيبة سوداء مليئة باللؤلؤ والزمرد والمرجان والياقوت الأحمر. سحبها بسرعة، واتجه إلى بيته غير أن زوجته رفضت أن تفتح الباب له لكونه قد تأخر على غير العادة.

قال لها بتوسل : معي مفاجأة لك ؟.. افتحي.

ردت بصوت أفحمه : لن أفتح حتى لو جئت معك بشيخ الحارة. ألا يكفي أنك تؤكّلنا معظم الأيام أرزّاً بلا زفر ؟!

جلس على بسطة السلم ما يقرب من ساعة، وحينها جاءته امرأة في غاية الرشاقة والجمال، ترتدي ثوبا أبيض فوضعت يدها فوق رأسه : قم معي. سوف تستريح.

توجس منها خيفة، لأنه لا يعرفها، انكمش في ذاته، وراح في نعاس مشوب بموجات حزن. حين فتحت الباب، وجدته نائما، وبين يديه الحقيبة، فسحبتها منه، لم يشعر بها أبدا، ولما فتحتها وجدت قطعا من الصخور الصلبة بألوان مختلفة.

صرخت من الحسرة، فأفزعته، وقام من نومه، وهو يضرب كفا بكف، فسحنتها حين تكون مقلوبة تستدعي غضب ربنا.

هو منصور الطيب، وهذا لقبه لا صفته، أما هي، فسكينة، التي لم تنجب سوى البنات فقد كانت مغرورة بقوتها، إذا تفنجل عينيها، ولا يهمها أن يسمع الجيران أصوات الشجار : كل بيت فيه ما يكفيه.

إنها تحمل أقفاص العيش من البيوت إلى الفرن حيث تنضج على نار هادئة ثم تعود بها فوق رأسها، و فوقها لفافة دائرية من القماش القديم. هي تعرج عرجا لا يلاحظه أحد، وتعود بالنقود والأرغفة الطرية اللدنة.

خليل الفران، الرجل البصباص، كان يريد أن ينفرد بها في مخزن الأخشاب المكسرة، وبدلا من أن تستجيب له، مثلما توقع، أنشبت أظفارها في وجهه، فعلت ذلك بلا صوت، فخرج الرجل لمكانه في فم الفرن يمسح أماكن الخربشة، وهو مصدوم ممّا فعلته معه.

بعد نصف يوم وجدها أمامه. امرأة بلا حجاب، تلبس فستانا أبيض، تجر أمامها طفلا في الخامسة، سألته مترددة : أريد تفصيل حذاء لي؟

أدخلها الدكان، وجعلها تجلس على الكرسي القطيفة المخصص للزبائن النقاوة، بهت لحسنها الفتان، ولتطابق ملامحها مع فتاة الحلم. فيما كان يبحث عن ورقة الكرتون كي يأخذ المقاس، وجدها تبكي. نهنهة بلا صوت تقريبا. اقترب منها وربت على كتفها، ومال ليقبل الطفل الصغير.

ـ اسمه حسن.

ـ عاشت الأسماء .

ـ عشت.

ـ لماذا تبكين؟

ـ الولد جائع، ولا..

شجعها، فأكملت :.. لا نقود معي.

هرش رأسه، فهو مثلها شبه معدم. استأذن دقيقة، وطلب من جاره الحاج شحتة النجار أن يقرضه مبلغا بسيطا. اختطفه بسرعة، ولم يكن قد أفطر بعد رغم مضي وقت على فتح المحل.

جاء بشطائر فول وطعمية، وقرطاس به باذنجان، وفلفل مملح، وقطع من البطاطس المحمر، وقرنين من الشطة، وبيده الأخرى جاء بكوبي شاي، وكوب ثالث من العناب للطفل.

لم يدر سبب تحركه بتلك السرعة. هل السبب جمالها أم دموعها؟

ربما اجتمع السببان فدعما موقفه، وبعد أن انتهيا من تناول الشطائر، شربا الشاي، وامتدت يده بالعناب ليشرب حسن.

وضع قطعة الورق المقوي على الأرض، وانحنى بجذعه كاملا ليأخذ مقاسها. ارتعد جسمه، ويده تمسك سمانة رجلها. تركها على الفور بعد أن مست الرعدة جسده، وسرت في الشرايين فتوفز الدم في يافوخه.

دوّن بقية المقاسات بجوار الطبعة، وسألها عن اسمها، أخفت ابتسامة : هدى.

ثم بعد صمت لم يطل :.. هدى.. جارتك في الحارة التي في آخر الميدان.

بهت حين نطقت اسمها بتلك البساطة الآسرة. أراد أن يعرف سبب التسمية. عاجلته بالحقيقة كاملة. رجل من الجيران خطبها لنفسه بعد موت زوجته. وكان في مقتبل الشباب غير أنه لم يكن يباشر النساء.

عرفت ذلك بعد ليلة الدخلة بأسبوع، ولما كان قد أحسن معاملتها، وهي التي ودت الفرار من قسوة زوجة الأب، فقد قررت أن تظل في بيته، ستضمن اللقمة والكسوة وسقف بيت.

ولما تكاثر عليه السكر والضغط، والقولون، وصدمة أن زوجته ولدت طفلا دون أن يبنى بها، فقد مات.

لم يكن من السهل أن تبوح بتلك الأسرار لغيره، لكنها وجدت رجلا بسيطا سمحا، فاستأمنته على أسرارها.

لم يتركها قبل أن يقترض مبلغا جديدا من المعلم مشرفة صاحب معارض " التقوى "، والذي حج البيت الحرام خمس مرات.

أقرضه المبلغ، وفيما هي تمر على جلسته في المحل، لم يتمالك نفسه فقال بصوت مسموع : سبحان العاطي الوهاب.

لم تنظر نحوه، بل نظرت وعبست ومضت في طريقها تجر الولد حسن، فيما يتبعها عطرها الذكي. هرول المعلم مشرفة نحو دكان صانع الأحذية. سأله عن أصلها وفصلها.

فأخفى منصور الطيب ما عرفه، وقال إنها مجرد زبونة. زبونة أتت لأصنع لها حذاء بنفسجي بشرائط ذهبية.

بعد أسبوع جاءت لتقيس الحذاء في البروفة الأخيرة قبل التسلم، وكان قد عمل حسابه هذه المرة، ومعه نقود كافية، لكنها أتت بإفطارها وإفطاره. أجلست الطفل على المقعد القطيفة، وجلست تتناول طعامها في هدوء مع صاحب المحل. وظلت تضحك لزيق النور الذي تسلل رغم الباب الموارب.

منصور الطيب ليس رجلا خباصا، ولا هو داهية يلاعب النساء بالعين والحاجب. عرفت عنه هذه الخصال، وارتاحت أن تحكي له عن مشاكلها ؛ فالعيون بصاصة، والقلوب متحجرة، وتدخل الجيران فيما لا يعنيهم أمر يثير الغضب. يقولون عنها : خناقة الرجال.

ـ والله يا أسطى منصور. لم أكن وجه شؤم عليه؟

ـ أعرف.

ـ كل شيء قسمة ونصيب.

ـ أفهمك.

ـ هل وجدت فيّ شيئا ذميما؟

ـ أبدا أنت ست الناس.

ومن الدكاكين المجاورة جاء كثيرون للبص والبصبصة ، وطلب أشياء لا تطلب عادة : المعلم مشرفة جاء ليقترض كماشة، والحاج شحتة طلب منضدة قصيرة لوجود ضيوف عنده، حتى أنور أبو زهرة، قهوجي الحي جاء ليأخذ صينية الشاي الفاضية، وهو يتركها في الدكاكين لأيام.

بعد أسبوع ثالث جاءت هدى لتستلم حذاءها، جربته في المشي داخل المحل. وحين تجاسرت على الخروج وجدت متسكعين هنا وهناك يتنصتون،

فدخلت ولم تنبس بحرف، كومت يدها بمبلغ من المال، وضعته في يد الأسطى منصور الطيب.

أرجع يده للوراء متذمرا : خلاص. بقى بيننا عيش وملح.

رفع الولد حسن وقبله، وهي بلا تفكير مسحت خدها وابتسمت، ومسحت في نفس الوقت عينيها المكحولتين بحساب.

أولاد الحلال أخبروا زوجته سكينة بما يحدث في غيابها، فجرجرت خلفها البنات الثلاث، رمتهن على ناصية المحل : شف من يربي لك الذرية.

هز رأسه، ولم يرد على هجومها. وقف ليسترد شيئا من كرامته المهدرة : روحي البيت يا سكينة ؟!

ـ سكينة في بطنك!

ـ الله يسامحك.

ـ إياك تقرب من البيت!

ـ حاضر.

أخذ كومة اللحم بين أحضانه، وظل نائما معهن في المحل بعد أن اشترى بطانية صوف. قبل أن يمر أسبوع رابع، كان عم هدى، يضع يده في يد الأسطى منصور، والمأذون يلقن الطرفين ما يقال في المناسبة السعيدة.

كان الصداق هو المسمى بينهما. وكانت خلال مراسم عقد القران، تلبس في قدميها صندل بنفسجي بشرائط ذهبية.

١٥ أكتوبر ٢٠١٧.

مصابيح مطفأة

أصر سعيد أبو الخيل أن يراها في العتمة، لذا دعاها إلى المحل، وأطفأ المصابيح كلها، مدعيا أن تيارا كهربيا قويا قد صهر المحول، وجعله قطعة حديد خردة.

الظلام يتربص بالناس لاسيما النساء في تجوالهن بين الأماكن، كانت نقية السريرة، لم تأخذ الموضوع على محمل سيء. ضوء المصابيح قد خرس، ونور القمر كفيل بكشف كل من يتحرك مع رقائق فضية هابطة من أعلى.

حركتها على عتبة محل البن كانت محدودة، وقد أتت بدون أن تصطحب معها ابنتها صباح، ربما يكون صاحب البيت سيراجعها في الإيجار المتأخر، وهو غالبا ما يفعل ذلك بصبر وأناة.

سعيد أبو الخيل رجل ليس بالهين، فهو ثري، متزوج من الحاجة قمر، والتي وجهها يقطع الخميرة من البيت، لكنه صابر، محتسب، يرجو جزاء الآخرة.

لديه ثلاث عمارات، منها عمارته التي تطل على الشارع بناصيتين، وتسكنها مديحة التي مات عنها زوجها، وكان يشتغل عتالا في محطة السكة الحديد.

عاجلها قبل أن تلتقط أنفاسها : أنت تعرفين قيمتك عندي.

ـ أعرف.

ـ منذ مات زوجك، وأنا حزين على مصيرك؟

ـ الناس بالناس.

ـ لابد أن يكون معك رجل يقف في ظهرك.

ـ ابنتي صباح معي.

ـ هي فتاة غريرة، لا تعرف في الدنيا شيئا.

ـ ربيناها على الاستقامة.

ـ ونعم ما فعلت.

دخل المحل، وعاد إليها بفنجالي قهوة مضبوط. مد يده نحوها : قهوة بالحبهان الأصلي.

ـ تسلم وتعيش.

بعد أن انتهيا من احتساء القهوة، دخل المخزن، وعاد بطبق مليء بالموز والتفاح، وعلى حافة الطبق سكينة من الحديد الصلب.

قطع لها التفاح، وانحرفت السكين فجرحت إصبعه. عض على أسنانه، ولم تملك نفسها من الضحك : شيء بسيط.

ـ فعلا، نقاط دم لا يؤبه لها.

ـ فعلا.

ـ لذلك أحب الموز أكثر، فيه التواء جميل، ونعومة محببة.

ـ أكيد.

ـ والرمان حين يفرط.

ـ معلم. حاسب في كلامك.

اقترب بمقعده أكثر، وكلما جاء زبون لشراء البن والشاي واليانسون والحلبة الحصى والكركديه، صرفه بصوته الأجش : النور مقطوع.

مد يده ولمس ركبتيها، وفي تلك اللحظة اقتحمت صباح الجلسة. انعكس ضوء القمر الشاحب على وجنتيها فبدت أجمل.

ـ خير يا معلم؟

ـ نريد السطح؟

ـ نحن ننشر فيه الملابس.

ـ لن يدخله غريب غيري.

ـ لا يصح.

ـ ممكن أن تنشري في البلكونة مثل بقية السكان.

ـ أربي فيه الديوك والبرابر.

ـ أريد أن اصنع له سقفا، وأخزن فيه أجولة الفحم.

ـ ألا يوجد مكان آخر.

ـ الإيجارات غالية.

ـ سأدبر أمري. يمكنك ان تفعل ذلك.

عاد بمقعده وبرم شاربه، ولم يأت صقر ليقف عليه بعد.

ـ أنت غالية عندي.

ـ واضح.

ـ سأضعك فوق رأسي.

ـ لا أفهم.

ضيق عينيه وتناهى إلى المكان صوت ديوك تصيح من بعيد صياحا مبحوحا. تريثت لتعرف سبب استدعائه لها، من كلامه فهمت. يريد أن يضمها لحريمه : قمر ذات الاساور الذهبية، والضب البارز في كل طلة على السوق.

تأخرت شهرين علي سداد الإيجار، وطلع صبيانه بأجولة الفحم على أكتافهم، وكان يشرف على رص الأجولة الخيش بنفسه، يحركه بيديه حتى تتساند على بعضها البعض.

نزل أربعة سلالم، وقف أمام الباب حتى فتحت له، كانت تلبس قميص " بيكه " بصدر مفتوح، بلا إرادة منها مدت يدها، وأخفت الطاقة المقورة التي تشف شيئا من بياض بشرتها.

دون أن تقول له أدخل، قدم رجله اليمنى واتبعها باليسرى : يا ساتر.

قامت لتعمل الشاي، وحين عادت لتجلس مكانها، كانت قد لمت شعرها بطرحة سمراء.

رأى غريمه في إطار مستطيل، وناحية الزاوية اليسرى شريط من الستان الأسود، ربط على شكل فيونكة.

تأملته مليا، وقد راح يسعل، والرجل يرمقه في عداء فما كان منه إلا أن أعطاه ظهره، وتكلم بصعوبة : الحي أبقى من الميت.

ـ وبعدين؟

ـ حملك ثقيل.

ـ ربنا يقدرني.

ـ تحتاجين إلى من يقاسمك حمل المسئولية.

ـ ربنا معي.

ـ القفة التي بأذنين يحملها اثنان.

دقات على الباب بأصابع صباح التي عادت من درس اللغة العربية بالثانوية العامة. دخلت ورمت السلام دون أن تصافح أحدا. أخرجت من

الثلاجة طبق جبن وآخر زيتون، واستلت رغيفا من المشنة، وراحت تأكل بتؤدة دون أن تعزم.

تردد صاحب البيوت، وراح يرمقها بنظرات فضولية، قاس طولها وعرضها من مكانه قرب الباب.

قامت وعملت الشاي لنفسها كما وضعت كوبا آخر لأمها التي شعرت بالإحراج لكنها لم تعقب.

دخلت حجرتها، وراحت تذاكر تاركة الباب مواربا.

قالت مديحة معتذرة : إنها مهتمة بدروسها لأقصى حد.

ـ من أين تأتين بثمن الدروس ؟

ـ نتصرف.

ـ لا تضغطي على نفسك. رقبتي سدادة.

ـ أشكرك.

ـ احنا عائلة واحدة.

ـ أكيد.

نظرت نحوه بانزعاج فواصل بلا توقف ماعدا نوبات السعال : هناك عرض لك بالزواج. رجل ثري، ويعرف حقوقك، وقد حج بيت الله.

ـ لا أفكر في هذا الموضوع.

ـ كيف؟

ـ أخذت نصيبي من الدنيا.

خرج فأر من الحمام، ومرق عبر الصالة ثم قفز فوق دورق مياه مغطى، ولكنه قفز كالأعمى ليسقط في حجر الحاج. لم يكن ليستوعب الصدمة بسهولة، إذا صرخ وارتمى على كنبة الصالة المشجرة ليبعد الفأر الغادر.

خرجت صباح على الصراخ، وضحكت لما رأته منكفئا على وجهه، وملامح الذهول تكسو وجهه فيسود قليلا.

قالت أمها لتبرر ما حدث : المسقط فيه كراكيب كثيرة، تحتها تختفي الفئران، لا تظهر إلا في الليل.

ـ لكنه ظهر الآن؟

ـ أول مرة يفعلها.

ـ غريبة.

ـ نحن لا نخاف الفئران، وقد تعودنا على مطاردتها بالعصا.

قال وهو ينظر بغضب نحو شباك المسقط : ما ردك على العرض؟

ـ هل لي أن أعرف شخصيته؟

ـ إنه أمامك.

ـ أنت يا معلم سعيد ؟

ـ نعم، وسوف أتولى البيت بجميع مصروفاته، ما عدا المياه والكهرباء.

فتحت صباح الباب على اتساعه، نظرت نحو سقف الصالة فرأت برصا كبيرا، راح يحرك ذنبه بذبذبات مرتعشة. جاءت صباح بالمقشة، حركت الطرف حتى سقط في منتصف الصالة تماما فوق صينية مطبوع عليها ورد جوري باللون البمبي. امتعض لما رأى المنظر، وجم للحظات : البيت مليء بالحشرات ؟!

ـ كراكيب المسقط.

جلست صباح أمام أمها والزائر، راحت تشبك يديها بعصبية لتطرد الهواجس التي سيطرت عليها.

قال المعلم سعيد : مثلما قسمنا السطح بينك وبيني، سنقسم الحمولة بيننا، وسأختص بالجزء الأكبر.

ثم راح يحوقل ويبسمل، ولما اقترب من صباح في جلستها، قال بنبرة صوت خالية من المعنى : ستكون صباح ابنتي. وسأفعل ما يريحها.

مال عليها طابعا على وجنتيها قبلة أبوية فاترة، فأبعدته بيدها في تأفف ظاهر. قامت الأم بدون إذن، وأشعلت البخور لتطرد الناموس والهوام، وقد أخرج من جيبه مسبحته، وراح يتمتم بأدعية للم الشمل، وتفريج الكروب.

من باب الشقة الذي ترك مواربا دخلت قطة، واستقرت في مكانها المألوف قرب جلسة الأم مديحة. مسدت الأرملة شعر القطة بهدوء.

قالت للصورة المواجهة التي ترمقها باستغراب : تفرج الوقت يا أبا صباح.

صعد ولد صغير منكوش الشعر الطوابق كلها، حان الدور على الطابق الخامس، الذي تقطن فيه أسرة مديحة. طرق بإصبعه الباب : الزبادي.

أخذت اثنتين ومنحته النقود، وقطعة كرملة كانت في إناء فضي.

قال الولد ببراءة : المعلم سعيد هنا ؟ هل أعطيهم في البيت ثماني زبادي؟

أشاح المعلم بيده، تحشرج صوته : روح يا ابن الكلب؟

ولما كان الكلام بلا طعم أو معنى أو لون، فقد مد يده بالمفتاح : استخرجي منه نسخة. والإيجار يكون عندي بعد يومين.أي تأخير لن أقبله.

نزل، وبص في يديه المعروقتين فرأى بقعا سوداء نتيجة تحريك أجولة الفحم فوق السطح.

قالت له وهو يهبط السلم في تثاقل : الفلوس ستكون عندك.

نظرت بحب وامتنان للصورة، ورأت في نظرات زوجها شيئا من الطمأنينة والسكينة، والشقاوة القديمة.

جرت ناحية المنقد، أشعلته، وضعت بعض الشيح، ثم أحضرت حفنة أخرى من البخور، وأطلقتها لتطقطق.

طفقت تنزل الدرج في هدوء، وابنتها صباح تتبعها، والدخان برائحته المعطرة يغمر السلم، تصعد لتستقر في أرجاء البيت القديم. البيت الذي لا مكان فيه لقدم غريب.

١٦/ ١٠/ ٢٠١٧.

التجريدة

الذي حدث أن إبراهيم الكرتة ضرب زوجته ـ حلاله ـ بالكف على وجهها، اصطدم كفه الغليظ بالوجه المورد فازداد احمرارا.

خرج على الفور إلى المقهى، والغضب يشيله ويحطه. جلس يشرب فنجان القهوة السادة، متحسرا على السنوات الخمس التي قضاها مع امرأة عاقر، لا تنجب.

صحيح أنها تحضر من أبيها الجزار قروضا لا تسدد، ينفقها على شراء الضروريات، ولحما بدون دهن أو عظام، وللأمانة فهو شاب مستقيم، لا يشرب غير الشاي والسكر بالليمون، لا يعرف دروب السياسة مطلقا، حتى أنه لا يعرف اسم حزب واحد في البلد الذي يدخله الناس آمنين، وحينما تسد الأبواب في وجهه، يكون الحل مع فنجان قهوة كما يفعل الآن في جلسته المنفردة في زاوية من زوايا المقهى.

كانت سهاد تحبه، وهو يبادلها نفس المشاعر، غير أن الحب فتر ككل شيء في هذه الدنيا، لم تنجب، وحين كررت زيارتها لطبيب أمراض النساء أخبرها أنه لا توجد لديها موانع للحمل.

ولقد طلبت منه أن يذهب بدوره للطبيب كي يجري الكشف عليه، فقال لها بتصميم عجيب : أنا رجل، والعيب ليس عندي.

فلما صممت على رأيها، صفق الأبواب، وأمسك بمفرش السفرة فشده، وكان من نتيجة ذلك أن كسرت المزهرية الفخار، وارد الصين، فانتثر الورد البلاستيك بأعواده الخضراء الجافة على المنضدة، وقبل أن تجلس في ركن كي تنتحب ككل مرة، هجمت عليه بكلامها : أنا سيدة سليمة. أمي تقول إنك مريض.

ما كاد يسمع هذا الكلام من سهاد، حتى انتفخت أوداجه، وصار كالديك الرومي حين يسمع صفيرا عاليا. دخل غرفته، كوم ملابسه، جذب الحقيبة، وبدأ في ترتيب أشيائه بغضب، وكلما عثر على قطعة ملابس لها، رمى بها على الأرض، وداس عليها بقدميه.

دخلت عليه في هذه الحالة، وقالت له بغضب : كيف ترمي ملابسي ؟ ألا يوجد عندك ذرة ذوق؟

كانت قد اقتربت منه غير خائفة، وكان يقول في سره : اللهم احفظنا من كل عمل رضي.

ولما واصل ترتيب الملابس، بدأت تخرج ما تبقى من بنطلونات وقمصان ورابطات عنق وجوارب بعضها ممزق من الكعوب، لترمي بها على السجادة. وقتها توقف ثم رفع ذراعه لأعلى، وهوى بالصفعة.

ترك لها الحقيبة وكل شيء، وجرى مسرعا على الدرج، وهو يرجو من المولى الستر، فأبوها جزار، وكل جزار جبار.

لم يكن سهلا عليها أن تخرج أسرارها، لكنها داست على كرامتها، وأرسلت الصبي كتكوت، الذي استدعى أمها على الفور. دخلت من الباب المفتوح على اتساعه، في السلالم الأخيرة سمعت نحيبها : سوف نريه شغله.

وجاء أبوها المعلم خيري العياط، فوجد المرأتين تبكيان، ولما كان بعيدا عن الساطور فقد أقسم ألا يفوت الزوج بعملته النكراء.

اتصل الجزار بأبناء عمومته الذين يعملون في الجزارة، المعلم فشة، والمعلم كرشة، والمعلم طحال، وقبل هؤلاء الحاج مشرط، الذي حج البيت الحرام لكنه ينتصر لأي قريب له، سواء أكان على حق أم على باطل.

لم يكن من الصعب أن يتوه الزوج عنهم. بحثوا في أغلب المقاهي، دخلوا عليه عنوة، وهو في منتصف شرب فنجان القهوة، جذبوه من الياقة فتمزقت، واقتادوه إلى محل الجزارة حيث كان المعلم خيري العياط يسن السكاكين، فتوقف برهة، ركن المسن وقال له والزوج يرتعد في مواجهة غير متكافئة : كيف تمتد يدك عليها؟

إن أي رد غير مقنع قد يغضبه أكثر، لذلك وجد أنه من الملائم أن يبلع ريقه، ويحني رأسه كي تمر العاصفة ـ وقد قال حكيم عربي : نقطنا بسكوتك.

– لقد أغضبتني.

هز المعلم خيري الساطور، وكسر بعض عظام الجاموسة المعلقة من عرقوبها : كيف؟

تحسس ابراهيم الكرتة كلماته، هو الموظف البسيط في الشهر العقاري، يحفظ أساليب التعامل مع المواطنين المطحونين، والسادة النجباء الميسورين، لكنه في مواجهة غول : طعنتني في رجولتي!

هز المعلم فشة رأسه : مستحيل.

اقتحم المعلم كرشة الحديث : فهمنا أكثر.

أما المعلم طحال فقد كان أكثر ميلا للسلام : سنأخذ الكذاب حتى باب الدار.

لحظتئذ وقف الحاج مشرط معترضا على طريقة الحوار : لابد أن يعلق من قدميه، ومع الوقت سيفهم قيمة البنت عندنا !

سيق مرة أخرى إلى منزل الزوجية، فصعدوا حتى الطابق الثالث، دق الأب باب الشقة، فتحت الأم الباب، وضربت صدرها بقبضة يدها، والأساور الذهب تصلصل صليلا مرعبا : جاء خائب الرجاء ؟!

بانت سهاد خلف باب حجرة النوم المواربة، كانت قد عقصت شعرها بمنديل زينة زهري، وقد وضعت الكحل حول عينيها، وحينما رأت الطريدة بين أيديهم، تراجعت خطوتين، وراقبت الأمور من بعيد.

طلع صوت ابراهيم الكرتة بصعوبة : ابنتكم على العين والرأس. لكنها تريد دفعي للطبيب دفعا. وأنا لا عيب في مطلقا. أبي أنجب سبعة أبناء، وجدي تسعة أبناء. فالخلل عندي غير وارد.

قالت الأم بصوت فيه قدر من التشفي : يضرب ثم نتناقش.

اندفعت سهاد من وراء الباب : لا يمس أحدكم شعرة من رأس زوجي.

نظر إليها المعلم خيري الجزار باستغراب : وحقك ؟

قالت وهي تحيطه بساعديها : حقي آخذه بيدي.

عند صدور هذه العبارة منها، أعيدت الأسلحة البيضاء إلى أحزمة الجلابيب البيض. قال المعلم وغضبه يخبو بعض الشيء : إذا قبلت لنفسك الإهانة، فأنا لا أقبلها.

هنا قامت الأم، وصلصلت الأساور من جديد : معك جق. لابد أن ينال عقابه.

تشجع ابراهيم الكرتة حين وجد زوجته تحميه بساعديها، فمال نحو رأسها، وقبلها قبلة خاطفة.

تراجعت الزوجة، وقالت بنبرات صوت تدمج الحنان بالعتاب : ابتعد عني.

رجعت إلى الوراء خطوتين، وأشار المعلم خيري لزملائه في التجريدة كي يجلسوا، وبقي ابراهيم الكرتة واقفا، معترفا بذنبه.

قالت أم سهاد، وهي ترمقه شزرا : اقعد يا زوج ابنتي.

لم يتجاسر على الجلوس إلا بعد أن أشار له المعلم خيري بطرف يده.

دخلت الأم المطبخ، وعملت دوراً من الشاي، وجاء شقيق سهاد، يشخط من أسفل السلم بعد أن بلغه الخبر : اتركوني له. سأشرب من دمه.

دخل من الباب المفتوح فرأى الجلسة دافئة، فخبت ثورته، وركن إلى الصمت.

قال المعلم خيري العياط : اسمعي يا سهاد.

ردت بكل هدوء وانكسار : نعم، يا أبي.

هز المعلم رأسه، وهو يقيس عباراته : هو أخطأ، وأنت تدافعين عنه ؟ لو أنك فتاة غريبة لقلت إنك مجنونة. أنا ربيتك وأعرف تربيتي. يبدو أن بينكم مودة وعمار.

طأطأت رأسها : نعم يا أبي.

نظر إلى الشاب، وقد اختفت عنه الرعدة : هل تعدني أنها المرة الأخيرة التي تضرب فيها ابنتي.

جاءته زبدية على فطيرة : بالتأكيد يا عمي.

وجدها الجزار فرصة للمرح : جاءك عمى الدببة.

ضجت الجلسة بالمرح، وعادت الأم بأكواب الشاي في دور ثان، وضعت الصينية الفضية على المنضدة : تفضلوا.

قال الأب بصوت يشبه الثلج المجروش : قم، قبل رأس زوجتك.

قام خاطفا جسده بسرعة، قبلها بدلا من المرة مرات، وهي احتضنته بعد طول تمنع، لكنها سرعان ما انخرطت في البكاء.

ردد المعلم خيري نظره بينه وبين الزوج : ابنتي نفسها عزيزة.

نهضت سهاد من جلستها، مسحت بقايا دموعها، فتحت شباكا، كانت قد أغلقته، مطلّاً على المنشر، شاهدت وهي تفعل ذلك عصفورا مشقشقا كان يتقافز على حبل الغسيل المشدود.

قال المعلم خيري العياط : ستحجز غدا عند الطبيب، وسأدفع أجر الكشف.

هز إبراهيم الكرتة رأسه، وكان في انحناء رأسه شيء من الامتنان : أمرك.

أما عاطف فقد دخل الحمام، وعاد ليقول لشقيقته إن الماء مقطوع.

ردت عليه، وفي كلامها شيء من الغموض : كل شيء في البيت سنصلحه. ستجد المياه في زيارتك القادمة.

هبط الأب، ورجال التجريدة، ومعهم عاطف خيري العياط، تلكأت الأم ثم انفردت بالزوجة التي راحت تتهامس معها في شئون نسائية، وسمع الجيران صوت ضحكاتهما المجلجلة.

حين صار إبراهيم الكرتة ـ الموظف المعروف بالشهر العقاري ـ مع زوجته في بيت لا غريب فيه، أسرع بأخذ يدها وقبلها، فسرت السعادة في قلبها، ثم حملها متجها نحو السرير، الشيء الذي لم يفعله منذ عدة أشهر سابقة.

١٧/ ١٠/ ٢٠١٧.

كلب أسود

فتح باب الشقة المغلق بمفتاحه في وقت يسبق ساعتين عن موعد عودته اليومي. أدار المقبض فوقعت عيناه على مالا يمكن أن يقال.

صعقه المنظر المخيف، وقد كان العري كاملا ومهينا، توترت كل خلاياه، وكف عقله عن العمل، وصار في مواجهة ذاته المنقسمة. وسمع نباحاً عالياً لكلب لم يره.

أما هي فقد جمدت مكانها، وغطى الغريب جسمه، ثم قفز من السرير هاربا دون أن يلبس غير سرواله الذي كان ملقي على طرف السجادة النبيتي.

لم تكن اللغة لتحل هذه المعضلة، والشلل الذي طرأ على جسده المرتعش جعل عيناه تعميان. لم ير في الظهيرة غير ظلام كامل. نوعاً من الظلام الذي لا يمحوه ضوء الشمس، ولا آلاف المصابيح التي تبدد في الغالب ظلام الليل.

لقد أصابه الخرس، وانكمشت في طرف السرير، وهي تستر عريها الكامل، وتنوح. جلس في مقعد بالصالة في مواجهة الباب الذي كان ما يزال مفتوحا على مصراعيه. سدد نظرة إلى سقف الصالة فوجد الكريستال يتألق، وقطعة بلور كالكرة في القلب تعكس شعاعا غريبا، لم يره منذ يوم زواجه الذي مر عليه تسعة أعوام و بضعة أشهر.

همد جسمه تماما، وانعقد لسانه فلم ينطق بكلمة. حروف تشكلت في عقله، ظلت تتشكل حتى تحولت إلى صرخة مدوية حاول أن ينطق بها. لم تسعفه ذاته المنكسرة فهمد تماما.

كان الجاني هو معتز النقاش الذي أعاد طلاء حجرات البيت منذ حوالي سبعة أشهر. عرفه وهو يبادله نظرة عداء مخيفة، فيما يستعد للمنازلة.

أعادته اللقطة التي ظلت تطرق باب ذاكرته إلى الحقب البدائية حيث الإنسان يمضي عاريا، منطلقا في مطاردة الحيوانات ليظفر بلحومها وألبانها، ولينتزع منها جلودها، يعرضها للشمس بعد وضع أكوام من الملح الخشن على الباطن الطري الضارب للحمرة، فيخفي بها مناطق معيبة من جسده.

ليس من شاهد سواه، والسرير الذي يعرف أنه لن يتكلم، والمرآة البلجيكي التي لها إطار من خشب الزان المطعم برقائق الذهب.

لا يملك إلا ذاكرة محطمة تمتلئ بالأشجار المتفحمة، والكهوف الحجرية، والسحالي المتوحشة الملساء، وثعابين الكوبرا التي تفح فحيحا مخيفا وتخرج ألسنتها، و أكداساً من جثث القتلى في حروب جرت بالسيوف والحراب.

مد يده كي يختطف درعا يقي بها ذاته من سهام مسمومة تصور أنها ستنطلق نحو جسمه فلم يجد شيئا يحميه.

الجوانح تنطوي على لوعة لا حدود لها، وقد انطلق إلى مدرسة ابنيه ياسر وطاهر. طلب بنظرة مؤسفة من المدير أن يحضرهما من الفصول ليكونا أمامه لأمر هام.

جاءا يبتسمان، ويلقيان بنفسيهما في حضنه. أبعدهما بأطراف أصابعه ، ثم هبط بهما إلى فناء المدرسة. أجلسهما في الشمس دون ان يرد على أسئلتهما. أمسك ياسر، عرض وجهه للشمس، كان بشعر أشقر لا يمت له بصلة، وعيناه ضيقتان بشكل ملحوظ، عنقه النحيل كان يماثل عنقه. تعلق بالأمل الأخير فراح يحدق في لون القزحية. انتزع من قلبه آهة قللت إلى حد كبير من آلامه المبرحة. كانت أمه تقول له وهو طفل صغير إن لون عينيه بنيتان. ياسر يحمل نفس لون العينين، وحتى وجنتاه صغيرتان مثله، عنده صورة قديمة في الصالون.

أمسك بالطفل الأصغر طاهر، هو الذي اختار له هذا الاسم لأن والده قد علمه أن الحياة بلا طهر لا قيمة لها. كانت تريد اسما آخر، وصمم على رأيه، غضبت نصف ساعة ثم ارتاحت للاسم المقترح.

أجلسه على الدكة الخشبية، وتفحص عينيه وأنفه الذي كان مفلطحا وفمه الضيق. يالله، يشبه فم أمه كثيرا. لكن العينين كانتا تميلان إلى السواد. عانقه الولد بيده اليمنى وحدها كما كان يفعل مع أبيه في طفولته.

يتذكر حين كان يندفع نحوه مطالبا إياه بالحلوى التي كان يخفيها أبوه في جيوب بعيدة عن متناول يده. لحظتها استراح أكثر فيما بقيت سحابة الشك تظلله، وتؤرق باله .

أدرك أن الولدين من صلبه، مد يده وأخرج لكل منهما قطعة نقود ورقية كبيرة. احتضنهما لدقائق، أطلقهما بتأثر، أخبرهما أنه مسافر، وقد لا يرياه إلا بعد مدة قد تطول. كان يعرف في دخيلة نفسه انه لن يراهما أبدا بعد ذلك. وفيما هما يصعدان السلم أتاه النباح المزعج فتابعهما ببصره حتى غابا عنه.

لاحظ أن زملاء الطفلين، الذاهبين إلى معمل العلوم أو حجرة الموسيقى أو المقصف يلوحون لهما، ويبتسمون لأن أباهما يزورهما.

كانت صرخاته المدوية ما تزال محبوسة في صدره. صرخات تصك السماوات البعيدة فترتد إلى ذاته كسهام من الحديد الصلب بأشواك تغرس في الجسد.

ماذا كان عليه أن يفعل وقد صدمته الواقعة وحولته إلى قطعة حجر، لا ترى ولا تسمع ولا تتكلم ؟

بعد زواج فاشل من مختار تاجر الأقمشة، لم يستمر سوى شهرين، طلقت وعادت إلى بيت أبيها، وكانت حديث الحي كله.

كان في بداية عمله موظفا بالشهر العقاري ، ليس معه من المال سوى مصروف الإفطار وثمن السجائر الرخيصة.

أبوها تاجر الذهب تعرف عليه، جالسه أكثر من مرة، وأخبره أنه مثل

ابنه، وكان قد ذهب إليه ليرهن عنده حلق أمه نبوية. لم يقبل الرهن وأعطاه ما يريد من مال بسيط، يدفعه حين ميسرة.

استغربت أمه لما حدث، فالسوق لا يعرف سوى المصلحة. وحين مر عليه بعد شهر لسداد المبلغ، رفض مد يده لتناول القرض، أحضر له مقعداً وجعله يجلس أمام المحل، أخبره أنه يريده في أمر يخصه.

بعد حوالي نصف ساعة،، اصطحبه إلى بيته، في الدور الثاني، وأجلسه في صالون فخم. أخبره أنه يريد أن يسجل قطعة أرض في الشهر العقاري، وبالتأكيد هو يعرف كيف يسلك له أموره، فلا يتعرض للنصب.

أعدت مائدة الغداء، وصفت الأطباق، وجد أمامه مائدة عامرة بالبط والحمام، وقطع اللحم، وقد زينت بديك رومي عظيم، وضع في الصدر علم مثبت بالسلك، يرفرف رفرفة بسيطة، فدهش لما رأى.

دخلت زوجة تاجر المصاغ بأطباق الخضار، وبعد ثوان دخلت نجوى بمطبقية الحساء، وضعت بكبشة في يدها نصيب كل واحد، وفي مواجهته جلست. في مواجهته تماما.

كانت أمه نبوية قد علمته أن يأكل ببطء ويمضغ الطعام جيدا إذا كان في عزومة، لكنه نسى كل ذلك ونجوى تبتسم له وبلا أي مقدمات تخلع الصدر، وتضعه في طبقه، ثم تفسخ الحمامة نصفين، وتضعها فوق الأرز المخلوط بالصنوبر. الأب الكريم، ينصحه بأن يكون حكيما حين يدخل في تجربة الزواج فالزوجة الصالحة خير من كنور الأرض.

حين عاد متثاقلا بعد أكل الموز والبرقوق والمشمش أخبره أبوه أن النظر لأعلى يتلف العنق، ويذهب بالبصر.

أبوه الذي ترك الدنيا كلها، ومنذ ربع قرن اختار أن يخدم في الجامع، يكنس الأتربة، ويحمل السجاد لشمسه، ويملأ القلل الفخار المصفوفة في سبيل الله. لم يكن يفهمه، ولا يعرف سببا واحدا كي يمضي حياته في الجوامع التي يعتبرها تقربا من الله. لم يستمع لنصيحته وقرر بينه وبين نفسه أن يتزوج نجوى.

رفض الأب أن يصحبه إلى الزيارة، ومنعا للمشاكل ذهبت أمه معه، زغردت في الصعود وكانت قد اشترت لفة بقلاوة رائحتها ترد الروح. لم تذقها منذ أكثر من عام.

جلست وبجوارها العريس، لم تمر بالتجربة من قبل لكنها طلبت من الأب أن تكون نجوى من نصيب ابنها، قرة عينها. أوصته عليه فدمعت عين نجوى وقبلتها فوق جبينها.

بعد أسبوعين جاء المأذون وتم عقد القران، وبعد شهرين آخرين تم إعداد مسكن الزوجية. زف إليها، وأذاقته فنون الهوى، وهو الغشيم في مثل هذه الأمور، ومن الغريب أنها أهدته يوم عقد القران خاتماً من الذهب بفص ياقوت.

كيف أقنعته أن يأتي النقاش ليقوم بطلاء الغرف، ويجدد الدوائر الفضية بالسقف رغم أنها بحالتها الأولى ؟

هل كان يعرفها قبل ذلك ؟ لماذا تركها تاجر الأقمشة ؟ هل من المتصور أن يكون الولدان ثمرة تلك العلاقة المشينة؟

الفحص الظاهري يؤكد أن الولدين نتيجة عناقهما الليلي معا. هل يطال العبث كل شيء في الحياة ؟

لو عاد إلى بيته فقد يقتلها، ولو أنه لم يفكر قبل ذلك في قتل ذبابة. ربما لو عاد ولم يفتح الموضوع لتصورته ديوثا لا يدافع عن عرضه ؟

مضي هائما في الشوارع حتى قادته قدماه إلى بقاع صحراوية، ثم رأى أشباحا تهيم في الطرقات البعيدة.

يشعر بالعدم، وهو يتقدم في طريق لا يعرف نهايته، يخاطب النجوم التي بدأت تظهر في السماء، تعكس ضوءها على جسده الواهن. يحس أنه قد تقدم في العمر سنوات عديدة. هو في الأربعين، وهي تصغره وتبلغ الثلاثين.

حين كانت تنفرد به في الفراش كانت تضمه وتخبره أنها تجد معه الطمأنينة والامان، وكان يصدقها.

حين ولدت ياسر كانت في غاية الفرح، وقد اشترى لوازم السبوع من حمص وفول سوداني وملبس وشيكولاتة، وقد وضع في كل كيس ورقة على هيئة قلب صغير باللون البمبي، وبجوارها شمعة.

كل شموع العالم لا يمكنها أن تبعث في حياته النور من جديد، ومع الطفل الثاني طاهر، كان حريصا على أن يذهب إلى عطية الخطاط، ليكتب الاسم بريشة مذهبة فوق الابريق.

الجد وهب الطفلين سلسلة ذهبية وضعها في الصينية الفضية التي اصطف فوقها سبعة حبوب، وكوب لبن، وشمعة توقد حتى الصباح.

خاصم الحياة كلها، وانحدر إلى طريق جانبي، حيث وجد كوخا قديما خالياً من البشر، مصنوعاً من أفرع السعف الجافة.

جلس ليستريح وهو يشعر بالخراب الهائل يجتاح العالم. تهتكت كل المواثيق، وقسيمة الزواج التي وقع عليها، ومهرت بأيدي شهود ثقاة لم يعد لها اي معنى بعدما شاهد بعينه عالمه الصغير يتداعى.

إن الكائنات الخرافية تزحف نحوه، وهو يزيحها بيده. لم يكن في يوم من الأيام يعترف بوجود الشيطان. لكنه الآن أكثر اقتناعا بوجوده.

عليه أن يحافظ على البقية الباقية من عقله. لم يبق إلا ذاته المعذبة، عليه أن يحرر نفسه من جميع الارتباطات التي جعلته واثقا من قدرة المدنية على حفظ الإنسان الفرد.

هل العري شيء مهين ؟ أبدا، لقد رآهما على تلك الحالة، ولو لم يكن هذا شيئا مدهشا لما فعلاه.

يقف على أطراف الكوخ، يبدأ في خلع ملابسه، لا ينتبه للزمن مطلقا. الزمن الذي جعله أعجوبة وهو نائم على أذنيه. يفكر في أن يضرم النار في نفسه، غير أنه يتراجع في اللحظة الأخيرة فهو ليس بمجنون.

كيف ياترى نبتت ذقنه بتلك السرعة ؟ أيكون الزمن ذاته قد تحطم من لدى قوى علوية ؟!

ينحني ليرتدي ملابسه من جديد، يأتيه صوت أبيه لائما : يا بني، لماذا خدعك الذهب ؟ تعال إلى جانبي والجأ إلى من لا يتخلى عنك أبدا.

يرفض النصيحة، يرى نارا من بعيد، وعليه يسقط ضوء شحيح لنجوم بينه وبينها آلاف السنين الضوئية.

يتذرع بالأمل، يقول لنفسه إنها قد جلبت العار لنفسها، أما هو فحر من نسل أحرار.

في لمح البصر تحيطه كلاب قوية، تنبح في مواجهته، يقودها كلب أسود كبير.

كلب لا يقدر عليه أحد، يقترب منه كي ينهشه، يستدير بأقصى سرعة، يمسك بالعصا، يهوي بها على رأس الكلب الذي راح يعوي مبتعدا، وخلفه بقية القطيع، أما هو فقد قرر أن يبقى هنا حتى النهاية.

١٨/ ١٠ / ٢٠١٧.

منتهى..

مثل غمامة شفافة مضت فوق المدينة. تعلق نظر زهرة بمرورها، وكانت مدينتها تقع على البحر، فمرت بجوار البيوت المتساندة على بعضها البعض حتى وجدت فسحة فتسللت منها إلى الشاطئ.

وضعت يدها في الماء، وتخلصت من الطحالب الخضراء التي علقت بأصابعها الرقيقة ، حفنت بعض الماء الذي كانت له زرقة قانية فلما صار في كفها عاد للون الأبيض الشفاف.

لم يفتح قلبها سوى صديق الأغا، الطالب بكلية الطب، الذي سافر ليحصل على الدرجة العلمية، تاركا معها قلبه ووردة وضعت داخل كتاب، فنشفت تماما، وسقطت بعض البتلات بلونها الأحمر القاني.

في مدينة الإسكندرية كان مكان دراسته، يركب الترام ويهبط في محطة الأزاريطة، وهناك يضع على ذراعه المعطف الأبيض، وفي حقيبة صغيرة سوداء علقها بكتفه أوراقه ومراجعه.

يخرج بعد اليوم الدراسي كي يسير على الكورنيش، وحين يسقط المطر يرتد إلى عوالم الطفولة التي هجرها في عزبة البرج : " علي يا أبو مركب.. خلي الدنيا تكركب". يضحك للذكرى البعيدة حيث يواجهه الفنار، وهو يبعث نوره للمراكب التائهة البعيدة : " علي يا أبو مخ.. خلي الدنيا ترخ ".يسمع البنات يغنين : " الدنيا بتشتي.. وهاروح لستي.. تعمل لي فطيرة.. تحت الحصيرة ".

قال لزهرة، وهو يضع دبلة الخطوبة في إصبعها، أنه سيكون مطمئنا بعد أن شبكها، فما باله يشعر بالحيرة والتردد وهي بعيدة عنه. زهرة التي كانت تدرس في دبلوم التجارة، وقد لاحظ أن تعبيرات وجهها يوم الخطبة هو مزيج من الفرحة والدهشة.

صديقه غاندي، لم يكن يحمل شيئا من بريق الاسم، فهو عربيد لكنه خفيف الدم. يبيع والده الخمور لزبائنه المعروفين بميدان الرمل، وقد يهبط عليه ضيف من السفن التي تنزل ركابها ترانزيت، ولديهم دائما المال والرحابة في التعامل بالدولار.

أما أمه ملكة فقد كانت سيدة بدينة، تلتهم الطعام التهاما، وعندها خزنة حديد تضع فيها جواهرها، ولا يوجد شخص في العالم قادر على معرفة اين تخفي المفتاح الصغير المربوط بدوبارة ذات لون برتقالي.

بعد حوالي شهرين من التسكع في شوارع الإسكندرية أخذه صديقه إلى حانة للسهر، وفي فقرات السهرة جاءت راقصة، وأثبتت ببراعة أن الأرض كروية.

لم يتوقف أمامها صديق الأغا كثيرا، لكن عينيه امتلأتا بالدموع، وهي تغني برقة ونعومة : " كله في الموانى.. يا أبا.. " ثم تقترب من الجمهور القليل لتلقي شفرتها الخالدة : " يا لقا الغريب.. على صدر الحبيب.. يا شوق المسافر.. للمرسى القريب ".

فر الشاب الغر من الحانة إلى أول قطار يذهب به إلى بلدته، قابل خطيبته، وعرف أنها تنتظره، وحزينة لأنه قد نسيها.

أخبرته زهرة أن الحب لا يعني دبلة في الأصبع، ووردة بين صفحتي كتاب، بل مشاعر صادقة متبادلة. فيما هي تتكلم سيطر عليه شعور عارم بالملل.

كان صوت المطربة يطارده ويجعله يرنو للأفق الأزرق حيث يرى السمان قادما من جهة البحر، وهي جالسة أمامه، تمنحه يدها فقط ليرى المستقبل بين خطوط متداخلة، يضحك أن كفها يحتمل أن يكون الرقم (٨١)، وحين صحبها إلى البحر، واستقل فلوكة أبحر نحو البوغاز. كادت تطير من الفرحة، ومال عليها فقبلها، ربما غضبت قليلا لأنها اتفقت معه على تأجيل تلك الخطوة.

قالت له أمه أن يحمل معه بعض الطعام لشقة الاسكندرية فرفض، أما والده فقد وضع في يده مبلغا من المال، ومن البلدة الساحلية إلى المدينة حيث محطة القطار، ركب عائدا إلى مكان دراسته.

هاهو يملك كل شيء يمكن أن يساعده على النجاح : الإرادة، والمال، والوسامة. تعرف أمه أنه حين يتأمل المرآة فسوف يجد طابع الحسن على ذقنه،

وهو يرفض تماما أي كلام عن الحظ والمصادفة فمصير الشخص بين يديه، ولا شيء آخر بعد ذلك.

أخذه غاندي مرة ثانية إلى حانة السهر " سهام الحب "، ودخلت الراقصة كعادتها، فأشاح بوجهه عنها، لم يكن ذلك خجلا، بل لأنه تربى على إنكار ذلك.

في الفقرة التالية غنت مطربة شابة أغنية مستعادة للفنانة صباح، فأصابه الملل، وقام ليسأل عن الفتاة التي غنت من قبل " كله في الموانى "، فأخبره صاحب الحانة أنها ستقدم الفقرة الختامية.

أراد المحل أن يقدم فقرة جديدة للساحر الذي يخرج الأرنب من القبعة، وقد ضحك الساهرون، وتعجب صديق من براعة الساحر وخفة يده.

جاءت المطربة التي تعلق قلبه بها، وغنت هذه المرة أغنية أخرى : " هوا يا هوى.. يا نسمة صيف.. رايحه تعدي على روحي وحبيبي ". وقد تأكد هذه المرة أنه قد جن بها.

عليه إذن ان يجلس معها، ولاشك أن هذا التصرف من جانبه يحمل سمة الحمق. وقد صدته في بداية التعارف، فأقسم لها أنه أحب صوتها فقط، فصدقته.

عجز صديقه غاندي عن فهم ما يقوم به صديقه من تصرفات، صحيح أنه لم يتخل عن تحفظه تجاه الأشياء لكنه كان يذهب كل ليلة ليستمع إلى الصوت، ويرتعد للذبذبات التي تخترق قلبه الواهن. هل يمكن ان يحب الشخص امرأة لكونه أحب صوتها ؟

كان هذا بعيداً كل البعد عن طباعه الجادة والتي تصل أحيانا إلى درجة الخشونة. كان لا يعرف بالضبط ماذا يريد من فتاة الملهى، وقد عرف أنها طالبة جامعية تعمل في المحل فقط لتساعد نفسها في تدبير مصروفات الجامعة.

اشترى لها مرة باقة ورد قرنفل، باللون القرنفلي. وضعها بين يديها، فأخبرته أنها سعيدة بزهوره.

وقع الشاب بين حبين، وبدأ القلق يساوره وهو يقف أمام المرآة كل مساء كي يصفف شعره ويضبط رابطة عنقه، ويتأمل طابع الحسن الذي لم يجد له معنى.

قال له غاندي الذي يكثر من شرب الخمور، وهو يترفق به : يبدو أن المجنون هو أنت، لا أنا. لن تصدق أمي أن الشاب البريء الذي كان يخجل من ظله قد صار عاشقا محترفا.

كان قد وصل إلى حافة الخطر، ولم يعد يكترث بشيء إلا أن يكون بقربها، يتلمس دفء صوتها، وجمال محياها.

أخبرته منتهى أنها تقدر مشاعره لكنها لا تفكر فيه كمحب أو زوج. قال له عبد السميع درويش والد غاندي : ابتعد عن الشر وغنِّ له.

لم يكن يراها إلا كملاك، وكان يجلس بالساعات لينتظر فقرتها، وقد سمحت له مرة بأن يوصلها فقد كان بيتها قرب الحانة. سألها ان يقابل والدها وأمها. قالت له وهي تحبس دموعها : أنا مقطوعة من شجرة. أمي انتحرت، وأبي في مستشفى الأمراض العقلية.

كانت صراحتها أكثر شيء أعجبه، أوصلها حتى بئر السلم، ورفع يدها وقبلها، ظل ينظر إليها حتى غابت عن بصره تماما.

اعتكف في البيت وانصرف عن الكلية، زاره غاندي وزملاء آخرون ، فأخبرهم بشكل حاسم، أنه لم يعد يفهم الدنيا، وأن دراسة الطب شيء لا يعنيه مطلقا.

كان يذهب كل مساء في التوقيت الذي تظهر فيه منتهى ليستمتع بصوتها، وتركته يوصلها، ومشت معه مرة على الكورنيش ليأكلا بطاطا ساخنة مرة، وقد رافقته في يوم إجازتها لحديقة أونطونيادس، ولما رأته قد خلع دبلة الخطوبة الفضية سألته عن السبب، فلم يرد وظل محدقا للطيور التي كانت ظلالها تسقط على العشب ثم تنمحي في ثوان.

قالت له بكل أدب : لا أصلح لك. ماذا تريد مني؟

رد بصوت مختنق : لا أعرف، شيء يدفعني لأكون معك.

هزت رأسها مستنكرة : تقصد صوتي ؟

استغرقته كآبة لم يعتدها، أخبرها أن الحياة فيها شيء ناقص.

هبط بلدته في زيارة قصيرة، جلس مع خطيبته، وضع بين يديها دبلته، قال لزهرة، وهو مرتبك : اقبلي اعتذاري، كل شيء قسمة ونصيب.

ردت دون أن يظهر التأثر في صوتها : كنت أعرف أنك ستضيع مني.

زار قبر العائلة، قرأ الفاتحة على أرواحهم، وطار إلى محطة القطار. مساء نفس اليوم حضر فقرة الغناء، وأسرعت منتهى فور انتهاء فقرتها باصطحابه إلى خارج المحل.

كانت السماء مربدة، البرق يومض، والرعد يزمجر. أمسكت يده فكانت باردة جدا. أخبرته أنها ستدخل معه مقهى قرب البحر : أريد أن أسمعك، فأنت تحيرني.

قال لها : لم يعد للكلام معنى.

ظل محملقا في النجوم البعيدة، قال لها بهدوء : لم أجد في الحياة إنصافاً.

هزت رأسها موافقة، قالت له وهي تستجديه ألا يستسلم للحزن : رغم انتحار أمي، ووجود أبي في المصحة، فانا أكافح لأعيش.

أخبرها بكلمات قليلة أن الحياة غير مفهومة، وأن الحزن الذي يتلمسه في صوتها يقوده إلى الموت الحتمي.

لقد وضع رأسه لأول مرة على كتفها، بعدها رفع رأسه، وجفف دموعه ثم ارتشف الشاي بهدوء ولطف.

ضحكت في وجهه، وربتت على صدره برقة : صرت الآن أفضل.

اغتصب ابتسامة، قام ليوصلها إلى بيتها. ظلت محتفظة بيده لأطول فترة ممكنة، قبل أن تصعد.

في مساء اليوم التالي زاره غاندي ليسأل عن أحواله.

وجد باب الشقة مفتوحا، رأى الجسد يتطوح. كان الحبل قد أحكم حول رقبته. لم تبذل الشرطة جهدا لتسجل الواقعة كحالة انتحار. في شقة بالدور الثالث، قرب كلية الطب بحي الأزاريطة.

٢١ أكتوبر ٢٠١٧.

الرصيد.

تنازع صابر القاويش مع زوجته زيزيت، ولما اشتد النزاع، رفع يده وصفعها صفعته المعتادة. طبقا للعادة المستقرة في مثل هذه الاحوال، كان لزاما عليها أن تدخل حجرتها، وتغلق الباب من الداخل، وتظل تنتحب حتى ينزل من البيت كي يجلس على المقهى. بعدها تتسلل إلى حجرة ولديها لتضمهما في حضنها الدافئ، ثم تحملهما ليقفا على حافة البلكون لتستمر نوبة النحيب المتقطعة، وعملية ربط الرأس، وجر القدمين لعمل قهوة سادة على روح " المرحوم" الحب.

كل خبراء الاسرة يقولون إن الحب هو مفتاح التفاهم، يزيدون : إنه لا يوجد في العالم بيت يقام بغير أعمدة من الحب، وهذا صحيح في كل الأحوال. ربما كان حبهما عصريا فضرب كافة التقاليد المستقرة، وانقلب المثل الغريب " ما محبة إلا بعد عداوة" إلى مثل نقيض لذات المعنى تماماً.

صابر القاويش مدرس التربية الرياضية أحبها، ودخل البيت من أبوابه، وجهز البيت بالعفش، وخطيبته التي كانت تمشي لتتبختر، ساهمت بالسجاد، والستائر والصيني وحلل المطبخ وحجرة الصالون.

بعد تسع سنوات من الزواج انقلبت الدنيا رأسا على عقب، فهي مدرسة للرياضيات، تعطي دروسا، وتراكم المال في البنك في حساب خاص، وهو مدرس تربية رياضية، لا عمل له غير جلسة المقهى.

لا يدفع فواتير الماء والكهرباء والغاز الطبيعي إلاه، ولا يدفع إيجار الشقة ذات البلكونتين غيره. وقد جرت مفاوضات بينهما، طالبا أن تساهم بحصة من صافي الدخل، فقالت إن الشيوخ قالوا في فتواهم إن الرجل الكامل العاقل يصرف على زوجته ويحضر لها خادمة، ويقشر لها البصل والبطاطس لو تأخرت.

وقد رضي بتلك الأحكام الجائرة حتى بعد أن أثمر الزواج ولدين : عيسى ومصطفى، وقد رأى أن يقصر الشر ولا داعي لخراب البيوت بسبب الاختلاف على الماديات. ومنعا للمشاكل نقلت لمدرسة أخرى حتى تكون بمأمن من المنازعات.

يقول الأستاذ طارق الطويل، وهو من خريجي الازهر : إن على الزوج تدليل زوجته، وطلب الوصال بطريقة سلسلة، دون أن يشق عليها، كما أضاف: إن الزوجة خلقت لتكون سكنا لزوجها.

الحقيقة أن كلام أستاذ الفقه لا غبار عليه، فالمرتب ينفد في منتصف الشهر، وتبدأ عملية الاقتراض، نبهها إلى ذلك فلم تعتبر. ولما كان الشهر ديسمبر فقد هجرها في الفراش فقالت في نفسها : " والله أحسن. كان الاستحمام في هذا الجو القارس يسبب لي مضايقات لا أبوح بها".

في بداية الشهر التالي جلس على السفرة، وكانت صينية البطاطس باللحم تتوسط المسافة بينهما، وأطباق الحساء مازال البخار يتصاعد منها.

ضحك، وقال لها إن طهيها لا يوجد مثله، وإنها سيدته وتاج رأسه، وأضاف وهو يسبل عينيه من فرط السعادة : آه لو تعرفين أوجاعي.

شهقت وهي تتحسسه : أين مكان الوجع يا حبيبي ؟

فأشار إلى جيبي البنطلون، ففهمت ما يقصد من مظاهر الإفلاس، فتجهمت ولو أنك الجار الذي يسكن أسفل الشقة لشعرت بدبدبة قدميها توترا واعتراضا.

ليس صحيحاً ما يقال إن كيد النساء لا يقدر عيه أحد، ما نسف هذه المقولة من جذورها أن صابر القاويش قد حارب في جبهة مختلفة تماما، وذلك بعد أن هزم في الصراع اليومي الخاص بالمرتبات، فقد كان في المدرسة التي يعمل بها فتاة لها سمرة محببة، قادمة من مركز ببا بمحافظة بني سويف، وقد كان يحكي لها الزوج عن مشاكله، فتطلب منه أن يصبر فكل مشكلة لها حل.

وحدث أن تغيبت يوما لمرض طارئ فزارها في بيتها بالمدينة القريبة، وسلم على أمها سيدة الأعمال، التي رحبت بالزائر، وسقته مشروب الأناناس، وقد ارتشف العصير كله. أثنى على عصيرها وأخلاق ابنتها وطيبة قلبها.

أسبوعان لا أكثر، وأصبحت فاتن مراد، هي التي تقاسمه الإفطار والشاي في الفسحة. وقد زاد على ذلك بأن حمل إليها قفص عصافير زينة لأنها وحيدة، ووالدها الضابط يسافر من مهمة إلى مهمة، وهي تفعل شيئين لا ثالث لهما : مشاهدة التلفزيون، وقراءة الروايات الغرامية.

زقزقت العصافير وهي في قفص السلك، جلس معها يشرب القهوة، أخبرها أنه يريدها لنفسه. صحيح أنه متزوج غير أن الشرع قد أحل له الزواج مثنى وثلاثا ورباعا. وأنه سيكتفي بزوجتين فقط، ليس الموضوع متعلق بالمال الذي تمنعه عنه بل ببوصلة القلب التي اتجه مؤشرها نحوها.

شعرت زيزيت بما تحمله نظرات زوجها من تهديدات مضمرة، لكنها واصلت موقفها المبدئي من عدم المشاركة بأي مبلغ من المال حسب وصايا الشيوخ.

وفي جلسة أخرى مع الأستاذ يوسف الطويل حلل لصديقه الزواج طالما ساوى بين من هن تحته. وقد عزم صابر القاويش ألا يساوي أبدا، ومال كل الميل للمرأة الجديدة التي خطفت قلبه.

رفض والدها الضابط الكبير تلك الزيجة، لكن زوجته أقنعته أن ابنته رغم جمالها في سن حرجة، وقد يفوتها قطار الزواج. واختتمت مرافعتها بأن قالت: إن الله حليم ستار.

بعد أسبوع بكامله وافق الأب أن تقترن ابنته برجل متزوج من قبل، واشترى عشة تمليك برأس البر، تم فيها الزفاف.

لم تكن زيزيت غافلة عما يحدث، وقد راحت في نوبات غضب، مزقت فيها قمصانه وبناطيله، ولما واجهها بذلك، قالت فيما يشبه القفز من فوق جبل على ارض من الحصى والزلط : أنا أو هي؟

تركها وذهب نهائيا إلى بيته الجديد، والحقيقة أن فاتن مراد كانت تحب زوجها، وبالرغم من كونها مدرسة فلسفة فهي لم تستخدم معارفها في تحديد علاقتها بزوجها، ورأت أن صابر القاويش أفضل من عشرات الشباب الذين لا يملكون صلابته.

وقد صحبته في زيارة قصيرة إلى مسقط رأسها في ببا، ولما سألها عن سبب تسميتها بهذا الاسم أخبرته أنها بمعنى الزهرة الكبيرة.

ساعتها أحاط خصرها بذراعه ومضى معها يتشمم النباتات الزهرية التي تنبت في أغلب الحقول . لم يكن هناك ما يعكر صفوه سوى صغيريه، ولما جاءته ورقة من محكمة الأسرة لم يرتعد، وكان يدرك أنه سيدفع النفقة وأجر

المسكن بعد تأجيلات كثيرة، فدبر المال، وعاش مع فاتن التي حرصت على تأكيد شعوره بأنه رجل البيت.

كانت زيزيت قد ندبت لمدرسة أخرى منذ زمن، فلما ذهبت للمدرسة الأصلية كي تحصل على راتبها وتوقع على الأوراق الرسمية، لمحته بطرف عينها، فلم تميد بها الأرض، فقط استندت على طرف المكتب الخشبي.

أما هو فقد فضل أن يذهب إلى مكان بعيد، وكأنهما لم يلتقيا أبدا من قبل، وكأنه لم يفض إليها، وهي لم تفض إليه. كل شيء تغير.

حتى ملابسه التي مزقتها وقصتها بالمقص الحديد لم يتذكرها، مجرد شاشة رمادية تنشر صورها من بعيد.

وفي عشتهما الجديدة كان يجلس تحت المظلة بخطوطها الخضراء المجاورة للحمراء. كان يراجع نفسه ويحاول أن يعثر على كل المبررات التي جعلته يتزوج ثانية. لم يكن المال، ولا النفوذ، ربما الحب الذي تبدد.

لقد ترك خلفه قطعتين من جسده :عيسى، ومصطفى، يزورهما أحيانا بالمدرسة الابتدائية، يصحبهما أحيانا أخرى إلى الحديقة ليلعبا، ويتسلقا المكعبات الملونة المجسدة.

ما شعر به في زواجه الثاني من فاتن مراد أن نظرتها بعد الزواج ما زالت تحمل البراءة، وأن وجهها الملائكي يبدد كل وحشة.

دون ان تضغط عليه أو تخبره بتذمرها بحث عن عمل إضافي، لم يعد يلتقي معها عند مائدة الغداء كل يوم.

يوم الجمعة خصصه للخروج معها إلى أحد المطاعم الراقية. أثناء خروجهما من باب المطعم شعرت بالرغبة في القيء. نظرت ناحيته بمرح لطيف: أصل.. أنا حامل.

على بعد ٧٥٠ مترا، كانت زيزيت تجلس على مقعد في الصالة ممسكة آلتها الحاسبة وقلم رصاص وورقة مسطرة. تحسب رصيدها في البنك وقد ارتاحت تماما، وهي ترى الرصيد قد زاد مرتين ضعف ما ادخرته في السنوات الثلاث الأخيرة.

٢٥ / ١٠/ ٢٠١٨.

نوجا

لم يتفتح قلبها سوى للوغد. الوغد، جميل المحيا، الذي يفرق شعر رأسه من منتصف الرأس، ويدعكه بزيت الزيتون فيبدو لامعا.

تخرج من المنزل لتذهب إلى الكلية الجامعية، وهي تحافظ على خطواتها الوئيدة، واحتضانها لحقيبة كتبها، واهتزاز الضفيرتين على الظهر المشدود.

هي من مدينة ساحلية، وأبوها الصياد يذهب للعمل على مراكب صيد تصل حتى شواطئ اليونان. كلما هبط المدينة كان معه هدية ثمينة لها : بلوفر كحلي، شرائط شفافة تلمع، بنطلونات بكباسين أمامية، زجاجة عطر من روما، حقيبة من جلد التماسيح.

نجوى أو " نوجا " كانت تخفي اضطراب قلبها كلما همس لها إبراهيم بكلمات غامضة، وهي ذاهبة إلى كليتها : بس. بس. بس.

تسير دون أن تلتفت خلفها، وهو يتابعها بدراجته الهوائية، وقبل أن تدخل من البوابة الحديدية، مبرزة بطاقتها تلتفت نحوه، وتضحك. ضحكة لا يراها أحد غيره.

تلك الضحكة كانت كل ردها على محاولاته المستميتة لكي يجلس معها أو يسير في حذوها خطوة بخطوة. تقول أمها أمينة، وهي تمشط شعرها في طور المراهقة : البنت المؤدبة، تسمع كلام الشبان من هنا، وتطوحه من هنا.

لم تستطع أن تطوح الكلام أبدا، بل ظل لصيقا بعقلها، يبدو كذبذبات حائرة خاصة كلما أحاطها الليل بغربته الممعنة في الغرابة.

إبراهيم الذي أستبعد من المدرسة الثانوية بعد سنوات رسوب متكررة فضل أن يفتتح محلا لبيع الأدوات الكهربائية. كان المحل في نهاية الشارع الذي يقع فيه منزلها.

ـ مساء الخير.

ـ أهلا يا آنسة نجوى.

ـ أريد مصباحا كهربائيا.

ـ كم وات ؟

ـ هو للصالة بدل الذي تلف.

ـ يكفيك ١٥٠ وات.

اشترته، واتجهت إلى منزلها في الدور الأول، والمسمى البدروم. قالت لها الأم : من يصعد على سلم ليركب المصباح؟

حاولت نجوى الوقوف على مقعد فوق منضدة السفرة، لكن توازنها اختل ووقعت فوق السجادة ، فصرخت الأم واحتضنتها، حمدت الله أن الوقعة جاءت سليمة.

لكن الأم التي تعمل على ماكينة خياطة تريد لضم الإبرة، وهي ـ نجوى ـ تحب أن تذاكر على مكتبها في ركن مخصص لها بالصالة.

ـ ماذا أفعل يا أمي؟

ـ سلامتك يا نوجا. نريد أي أحد كي يركب لنا المصباح.

ذهبت إلى إبراهيم في محله، بصوت خفيض سألته : ممكن تركب المصباح؟

طار معها إلى البيت، وكان طويلا فلم يحتج إلى سلم. خلع حذاءه ، وكان بلا جورب، وضع مقعد منجد بالقطيفة فوق منضدة السفرة، خلع المصباح القديم، وركب الجديد.

شكرته الأم : اقعد اشرب شايا.

جلس فعلا، ولم يمرر الأمر مثل عزومة المراكبية ، رأى الكتب والمراجع مرصوصة فوق المكتب. ذهبت الأم لعمل الشاي، تجولت عيناه في الأركان، أسرعت نجوى فأغلقت حجرتها فقد كانت ملابسها معلقة على علاقة خشب في المواجهة.

عرف من الأم أن الأب في رحلته الاعتيادية على مركب الصيد في عمق البحر المتوسط، سألته عن عمله فأخبرها أنه لم يكمل تعليمه. لكنه يكسب كثيرا من محل الأدوات الكهربائية. وحدثها عن أمه فاطمة المغربي التي ترملت بعد موت زوجها الصياد في حادث ارتطام المركب بالبوغاز.

قالت له بتأثر : الله يرحم والدك. كان حسن السيرة.

أثناء الكلام تنبهت إلى أنها تركت طعاما على النار، فقامت مستأذنة لدقائق. انتهز ابراهيم الفرصة، وأمسك يد نجوى بغتة. لم يكن لذلك أي داع، فالعلاقة بينهما لا تتطلب مثل هذا الفعل المتهور. صفعته بغيظ، وخرجت الأم على صوت الصفعة، تساءلت عيناها عما حدث.

قالت نجوى بإيجاز : الذباب.

قال ابراهيم بمكر : لابد من مطاردة الذباب حتى لا يفسد علينا حياتنا.

تحسس وجهه، توعدها بشيء من الدعابة : سأريك النجوم في عز الظهر، فضحكت.

أنهت الأم الجلسة : نشكرك يا بني على تعبك.

قالت الفتاة، ووجهها يشي بسرور : مع السلامة.

أما هو فقد اتجه إلى محله غير قادر على السير بتوازن. كانت الصفعة تمثل له إهانة بشكل ما. لكنه تعهد بينه وبين نفسه أن يكون له الرد المناسب في الوقت الذي يحدده.

كلية الآداب وجهتها، لها طموحاتها، وأحلامها، وهو يتبعها كظلها لكنه يترك الدراجة الهوائية أمام محله، ويركب معها الأتوبيس، يجبرها على أن يدفع لها ثمن التذكرة، وأن تقاسمه قطع البسكويت التي معه.

تعبيرات وجهها لم تكن تبوح بأسرارها، مرتبكة فعلا لأنها لم تمر بتجربة من قبل، وهي ككل البنات تريد أن تكون مرغوبة، محبوبة، فتركت الباب مواربا.

يأتي والدها من البحر، ويركبه ذاهبا في عمق اللجة الزرقاء بعد أسبوع عائدا بالرزق الحلال، ينظر في عينيها، فيرى حيرة لا يعرف سببها : كيف حالك يا نوجا ؟

. فيما أمها منكفئة على ماكينة الخياطة، لتزيد دخل الأسرة، ولأنها تهوى الشغل بدلا من النوم بدري.

بعد مناورات عديدة أحبته، دخل قلبها من الشباك البحري، بعد أن ضل طريق الباب. كان يصحبها إلى رأس البر في الشتاء ليواجها البحر معا، ويراقبان أسراب السمان و الشرشير والبلبول القادمة مجهدة من الشمال.

أقنعها بالخطوبة، ولم يجد الأب مناصا من الموافقة على العريس طالما عنده شقة، قادر على تجهيزها، وفرشها.

تحفظت الأم قليلا : تمهلي يا نوجا؟

تحمر وجنتاها، تختار الكلمات بعناية : هو مناسب لي يا أمي.

خشيت أن يكون العريس فاسدا أو دعيا أو شاربا للحشيش : نسأل عليه، أمامنا وقت طويل.

ترد بدموع عينيها : ليس فيه عيب واحد.

وافقت الأم بعد إلحاح ابنتها الوحيدة التي استماتت في إقناعها بأن إبراهيم شاب مكافح، مستقيم، نزيه، لا يشرب سوى الشاي واليانسون، وحينما يغضب يشرب القهوة المضبوط.

بعد الزفاف بأسبوعين فوجئت بمخبر يستدعيه إلى قسم الشرطة، فانزعجت، وظلت تنتظر عودته التي تأخرت يومين. لم تخبر أحدا من أسرتها. حين عاد أخفى عنها سبب الاستدعاء. ولما ألحت عليه في معرفة السبب، قال: هي مشاجرة قديمة وقد سويت الأمور.

لم يكن أحد يعلم أن محل الأدوات الكهربائية هو ستار لذر الرماد في العيون. كان الشاب مشاركا في توزيع المخدرات، على نطاق واسع في بلدة يسافر أغلب شبانها إلى بلاد "الإجريج" أغلب شهور العام. بعد شد وجذب من مأمور المركز تم تجنيده عينا للحكومة.

حملت نجوى، وفرحت بأنها ستنجب طفلا يملأ عليها حياتها، خاصة أن إبراهيم قد فاض عليها بعواطفه المحبة، وعاملها أفضل معاملة، وكسر توقع أمها بان يكون عريسا واقعا من قعر القفة.

لقد بلغ به الأمر أنه كان يلثم يديها قبل الخروج للعمل، ويضع قبلة على جبينها في وقت العودة حتى لو كانت نائمة. هل سمع أحدكم بهذا الفعل بين الأزواج ؟!

تسأل أمينة عن أحوالها : إنه أشبه ما يكون بملاك يا أمي.

تضحك أمها، وهي غير مصدقة : خافي إذن أن يطير !

من فرط حبها لها قررت أن تسمي الطفل باسمه، وسوف يكون ذلك أمرا محتما، فهي تريد أن يظل إبراهيم أمامها، تنطق اسمه حتى وهو خارج البيت.

كان لمجموعة من تجار المخدرات رأي آخر، فقد توجسوا منه خيفة، حيث تسرب إليهم الشك فيه، ورأوا أن تكون ضربتهم قاصمة.

عندما استدرجوه للمشاركة في جلب صفقة، أخذوه لعمق البحر، قيدوه، صفعوه، أطفؤوا سجائرهم في رقبته العارية، ولما اعترف بأنه قد أصبح عينا عليهم في لحظة ضعف، تشاوروا في الأمر.

قال فريق : نمنحه فرصة للتوبة. قال فريق آخر، وكانت له الغلبة، في ليل قمره أقرب للمحاق : الموت لمن غدر وخان.

منعته كرامته من أن يبكي، نطق بصوت مرتعد، فيه لمسة أسى شملت كيانه كله : تبت، واعترفت بذنبي.

عادت الوجوه الجامدة تومئ بالمصير الذي يستحقه، قال كبيرهم : سنضع صرة لابنك بالمال الذي تستحقه قبل أن تشي بنا. سنفعل ذلك عندما يولد ويكبر، لأننا رجال، والرجل يربط من لسانه .

ألقوا به في خضم الماء، والحبال تكتفه تماما.

دفعته أياديهم الغليظة إلى البحر، كانت الدنيا ليل، والقمر محاق، ولم يكن هناك حوت كي يلتقمه.

بكت نجوى على غيابه الذي لم تستطع له تفسيرا، ظلت تاركة الباب مواربا حتى يدخل فور عودته، وبعد ثلاثة أيام طفت جثته على الشاطيء. لم تحتمل الصدمة فسقطت تتخبط في أحزانها.

مات إبراهيم بعد أن قتل غيلة، بعد التحقيقات لم تتوصل السلطات المسئولة للجاني، فقيد الحادث ضد مجهول.

وضعت نجوى طفلها بعد أربعة أشهر من موت الأب، وكان رضيعها إلى جانبها على سرير أبيض مشغول بورود صفراء وحمراء ووردية.

تمد يدها، تربت عليه بحنان وهي تنتحب : لماذا تبكي يا إبراهيم؟

تركت منزلها مغلقا، عادت إلى بيت الأب الصياد، إلى نفس حجرتها القديمة، وهي لم تكمل تعليمها في كلية الآداب بعد.

ورثت محل بيع الأدوات الكهربائية، وظل مغلقا ومعها مفتاحه. قررت العودة للكلية بعد استيفاء الأوراق. كان كحل عينيها بسيط، وفي نظراتها استقر حزن العالم.

تنهي دراستها وتجري مسرعة نحو إبراهيم الصغير الذي ملأ عليها حياتها بكاء وصراخا وهدهدة.

كان تحت وسادتها صورة تجمعها بزوجها الذي صعد إلى خالقه. تنظر إليه بذهول، تحدق في الملامح ثم تمرر كفها الصغير على قسمات الطفل البريء.

تقول في نفسها : سوف يكبر، ويتعلم، وسيقف في المحل، وأكون معه، أساعده.

تضيف وهي تهزه في مهده : لن أسمح لأحد ان يستدعيه كي يركب مصباحا في سقف أي بيت.

٦ / ١١ / ٢٠١٧.

قطط محشوة بالقطن

عاد من الحرب مجهدا، فاقدا حماسه القديم لكل شيء. يصعد أربعة أدوار بسلم حلزوني ضيق، عند العتبة يخرج من جيبه المفتاح ليفتح باب شقته، ويغلقه خلفه. يجلس في صمت على مقعده الخشبي، المقابل لمقعد آخر شاغر، محملقا في الحائط المطلي بالجير الذي أمامه.

على يمينه غرفة النوم، وبها سرير يتسع لشخص واحد ، ودولاب بثلاث ضلف ، ومرآة مكسورة من أعلى، وصورة له فترة الشباب. لقد اصفرت الصورة، وتجعدت ثناياها، فبدت غريبة عن الجو الذي يحيط به، كأنها قادمة من عصور موغلة في القدم، حتى أن ابتسامته المشرقة بدت شاحبة وغريبة.

على اليسار حجرة الصالون الذي لم يعد يستعمل منذ سنوات بعيدة، فبدت موحشة، مثله تماما، وهو الشخص المتوحد بذاته حيث انصرف عنه أصحابه، بعد أن تزوجوا جميعا، وبقى هو وحيدا، يقر بهزيمته أمام هذا المشروع الاجتماعي الذي رفضه منذ البداية، خاف منه ولم يجرؤ على السير فيه.

الصالة وحدها تستوعب همومه، ففيها يجلس ليتناول طعامه في وجبتين اثنتين : الإفطار والعشاء، أما طعام الغذاء فيكون في مطعم صغير وضيق، بشارع جانبي قرب سوق الخضر.

فتح عينيه على أم طيبة، ورجل حاسم صارم لكنه يحب النساء حبا جما، بعد مشاجرات عنيفة حملت حقيبتها، وغادرت البيت تاركة الزوج والطفل الصغير ، هو الذي تعلم وكبر، ودخل الجيش وحارب دون أن تكون له أم. كان يريد أن يراها خاصة أنها لم تتزوج بعد تجربتها الأولى، لكنها خافت أن تضعف فلم تحاول الاقتراب من ضناها. ظلت بعيدة، لأنها لم تكن تطيق أن يحب زوجها النساء مثنى وثلاثا ورباعا.

صحيح أنه لم يتزوج غيرها، و تركها معلقة فلم يطلقها، وهي لم تتقدم للمحكمة كي تحصل على ذلك اللقب البغيض. ظلت في الأوراق الرسمية هي الزوجة التي من حقها أن ترث بعد موت الزوج، ومن حقها كما تقول اللوائح الحكومية أن تحصل على معاش الميت.

لما مات زوجها لبست الأسود أربعين يوما، وحزنت لأن ابنها قد صار يتيما، وربما بسبب الجفوة التي ظلت قائمة بينها وبين الابن الذي تعود أن يكون بلا أم، ولا أسرة باستثناء أبيها الذي لم يكن غليظ القلب معه ؛ فقد كان رحيما به، يقاسمه الطعام، ويترك له مصروفا مناسبا حتى بعد أن دخل الجيش، وصار جنديا في كتيبة الدفاع الجوي.

مع موت الأب ورث الشقة عنه، وسبق ذلك ذهابه للمحكمة، وعمل إعلان وراثة، هناك في الدهاليز الموحشة قابل أمه فتبادلا نظرات محايدة، شبه خرساء.

في الأفلام المصرية القديمة كان من طبيعة الأمور أن تندفع الأم تجاه ولدها لتحتضنه، وتقول له بصوت هامس : سامحني، يا بني.

وفي الأفلام ذاتها كان من الطبيعي أن يقترب الابن من أمه مصحوبا بموسيقى الناي ليمسك يديها كي يقبلها مطلقا صيحته : اعذريني يا أمي.

لا هذا حدث ولا ذلك وقع، كل ما هناك أن كلا منهما قدم بطاقته لكاتب المحكمة وأجاب عن أسئلة محددة، وفي نهاية الجلسة طبق القاضي حكم الشرع. أما هي فقد أرسلت محاميها كي يتنازل عن حقها في الميراث، لأن ابنها هو الأحق بالمال والسكن. وهو لم تأخذه بها شفقة حين فعلت ذلك، ولا دق قلبه دقات زائدة وسريعة حين قابلها مرات معدودة بعد ذلك، فلا شيء يجمعهما.

حين تعرف على الفتاة الأولى قبل دخول الجيش أمسك بيدها البضة فوجدها باردة، قربها من فمه ليقبلها فأجفلت، ولم يكن هناك لقاء ثان، أبدا.

مع الفتاة الثانية خلال فترة التجنيد تعرف على الفتاة الثانية في إحدى حدائق الاسماعيلية، جلس معها تحت ظلال شجرة كافور، وتمتع برؤية القزحية العسلية، وحين همت بتقبيله، ابتعد بمقدار بوصتين، فغضبت، ولم

تقابله إلا مصادفة في المستشفى التي تعمل فيها . لم تكن قليلة الأصل حتى تتجاهله بل هتفت باسمه، وأرسلت له كوب شاي مع عامل يقف في مدخل حجرة كشف العظام.

ربما كانت الفتاة الثالثة اسعد حظا، فقد قابلها بعد خروجه من الجيش، حدد معها موعدا للقاء، للتعارف وترتيب الأوراق. كانت طيبة وخجولة وبها مسحة ريفية، هي التي مدت يدها لتمسك بيده، ولم يكن هناك مانع من أن يبادلها هذه المشاعر الرقيقة غير أن الزمن كان قد مضى حاملا معه بكارة التجربة، فلم يشعر إلا بأنه مجرد حقل تجارب لشيء غامض يسمى الحب.

أدرك أن الحب على السرير غيره في السوق، وأن اقتران المرأة بالنعومة ليس دليل براءة، وفي كل مرة كان يقترب من فتاة كانت تظهر أمه لتكون متيقظة لكل حركة يفعلها. صحيح ما قاله الحكماء من أنه ما اختلى رجل بامرأة إلا وكان ثالثهما الشيطان. وشيطانه هو بالذات يتمثل في أمه الهاربة من بيت الزوجية.

سأل نفسه سؤالا لم يعثر له على إجابة : هل كانت أمه تتزين في البيت، فتضع أحمر الشفاه والبودرة والكحل أم أنها كانت لا تفعل تلك الأشياء؟

حين تركت البيت، وهبطت السلالم الضيقة الحلزونية كانت دقات كعب الحذاء تدق بإيقاع منتظم. وكان يقبع في ركن من غرفة الصالة، ورأسه تدور من شدة حيرته.

اقترب منه أبوه، قال له دون أن ينظر نحوه: لن تعود أمك للبيت ثانية.

واصل حديثه : أشغل حجرتك، وسوف املأها لك باللعب : كلاب وقطط محشوة بالقطن، وثعبان من المطاط، ومكعبات تبني بها بيتا.

كل بيت يبنيه كان يقف أمامه مبهورا ثم ما يلبث أن تمتد يده لتبطش بالمكعبات، فتتناثر هنا وهنك ولا يبقى هناك بيت على الإطلاق.

دهش أبوه عندما لاحظ أنه لا يبكي مهما اشتد به الألم، وعيناه لم تكن تتساقط دموعها لأي سبب. في البداية أعجبه قدرته على التحمل لكنه مع مرور الوقت صار محتارا فهو يدرك أن من لا يتألم لن تمر عليه بعد ذلك مشاعر السعادة أبدا.

مات الأب وكان الابن هو الذي أشرف على غسله، وتكفينه، وطلب اللحاد كي يفتح باب المقبرة، وهو الذي حاسب هذا وذاك.

في أول ليلة قضاها في البيت بمفرده شعر أنه يكاد يختنق كلما دخل الحجرة ذات الخزنة التي بها سرير أبيه، والمشجب، والدولاب الكبير، والمرايات المعلقة أينما ولى وجهه.

جاء ببائع الأثاث القديم، وحمله كل ما في تلك الحجرة بما فيها الستائر واشترى سريراً وحيداً، ودولابا صغيراً، ومنضدة بقوائم قصيرة.

قال لنفسه : سأبدأ من جديد.

فكر في أن يقترن بزوجة من بيت محترم، ودخل البيوت من أبوابها، لكن الأب ـ أبو العروس ـ استغرب أنه جاء بلا أم أو أب، بلا أعمام أو أخوال. اعتذر في لباقة وقال إن العروس ستكمل تعليمها.

فتاة خامسة كانت تمر عليه في محل بيع " عفش " الأثاث الذي افتتحه، وكدس فيه المناضد الصغيرة، والتسريحة، وحامل الفوط، و الأجزخانة.

سألها : هل أنت مخطوبة؟

ضحكت له، أخبرته أنها كانت مخطوبة لجار لهم، وبعد أن خطبها سافر إلى ليبيا، ومات في حادث سير ببنغازي.

إنها حزينة على خطيبها لكنها أخبرته، وهي تهز رأسها في أسى : إن الحي أبقى من الميت. وقد رنت تلك العبارة في أذنيه. سأل نفسه : أأنا حي أم ميت؟

عليه أن يواجه ذاته في المرآة المكسورة، وحين وقف ليصفف شعر رأسه اكتشف أن شعيرات بيضاً قد تسللت وسكنت رأسه. امتقع وجهه وعرف أن الزمن يزحف بضراوة.

في طوابير التمام كان يشرد كثيرا، ويعاقب بتمارين ٦، ٩ كي يركز في التدريبات. لم تجدِ التمارين معه شيئا وظل يعاقب بخدمات زيادة. وحين صار حرا، خارج الثكنات، اكتشف أنه مات منذ فقد أحاسيسه، ومن يسير ويصعد ويهبط وينام هو جسد بلا روح.

أعفى كل من عرفهن من مغامرة كان مصيرها الفشل. جلس يفكر في وصيته التي كان يريد أن يكتبها، فربما مات وحيدا وراء تلك الجدران. كل يوم يؤجل كتابة الأوراق حتى ابتلعته زحمة الحياة.

في غرفته فتح نافذة كانت مغلقة، وجد الناس تسير في الشارع كل يتجه إلى هدف حدده. سأل نفسه : ترى أي هدف رصده ليصل إليه؟

كانت الحياة فراغاً كبيراً، مجموعة من المشاهد الممزقة، والأصوات المتقطعة، وصورة الأب الذي مات أخفيت بمهارة وراء الدولاب. أما صورة الأم التي كانت تبتسم وهي تحمله طفلا رضيعا فقد كانت في آخر درج من مكتب صغير في الحجرة الأخرى.

يأتي بها، يحملق في الملامح ثم يقذف الصورة لتقع على الأرض. بعد أيام سينحني ليلتقطها ويسدد نظرة باردة تجاهها.

يسألها سؤاله الأكثر إيلاما : لماذا فعلت بي ذلك ؟!

٢٢ / ١/ ٢٠١٨.

سلوى

قابلتها في الحفل الليلي برأس البر، وكان يتضمن مناسبة اجتماعية سعيدة. نظرت نحوي في ارتباك، وسلمت عليّ بتحفظ، تمتمت بكلمات مبهمة لم أسمعها، لأن الموسيقى الصاخبة كانت أعلى صوتا من الكلام.

رأيتها تخرج من القاعة إلى الحديقة المطلة على النهر كي تتحدث في تليفونها المحمول. بعدها بدقيقة أو دقيقتين جاءتني مكالمة هاتفية فذهبت إلى مكان قريب في ذات الحديقة. انتهيت من مكالمتي قبلها، وجدتني مسمرا أمام الأشجار التي بدت ساكنة وحزينة، وغارقة في ظلمة الليل.

أبصرت سلوى قادمة من الجانب البعيد، عبرت جسراً مقاماً من قطع النخيل الممددة على الأرض، وقفت في مواجهتي، قالت بصوت يغلب عليه الوهن، ويعتريه التعب : عرفتني؟

ـ طبعا.

ـ عندما رأيتك وددت أن أبكي.

ـ لماذا؟

ـ استعدت تلك الأيام البعيدة التي جمعتنا دون أن نرتب لذلك.

ـ أحس بتلك المشاعر، فقد كنت تحبين ثروت كثيرا.

ـ كان هادئا وجميلا.

ـ وكان ذكيا بما يكفي كي أحبه.

أربعون عاما طوتها الذاكرة،عدت إلى أيام التدريس الأولى، الشعر المنكوش والبنطلون الشارلستون، والأحلام المحلقة.

بدأ العام الدراسي، ونحن نحاول قدر الإمكان ترتيب جلوس الطلاب الصغار حسب أطوالهم. تأتي بشقيقها الصغير ليحتل أول الصف، وهي تجلس معه قليلا، تحيطه بذراعيها قبل أن تتركه، وتتجه إلى مدرستها الثانوية.

توصيني كي أعامله برفق وحنان، فهو لم يألف الغرباء بعد. كان محاطا بحب ورعاية من الأسرة جميعا بعد أن مات أبوه منذ أسابيع قليلة.

تاجر مواد التموين المعروف، والذي سقط فجأة دون مرض أو شعور ما بالألم. غاب تاركا البيت خاليا من طيبات الحياة التي ألفوها.

تعهدت سلوى أن تأتي به ليشعر بالأمان، وكانت تخرج من حقيبة المدرسة قطع الحلوى وتدسها في يده، وفي أيدي من حوله، ثم تقبله قبل أن تذهب.

الحقيقة أنني تضايقت جدا من هذا الاهتمام المبالغ فيه لكن الأيام أثبتت لي أن الولد كان بحاجة لمن يربت على كتفه، ووجدتني مندفعا في تشجيعه لأنه كان مؤدبا وطيبا للغاية، ولم يكن ليثير المشاكل كأغلب من حوله من طلاب.

في حصة الألعاب يجلس منزويا في ركن من حوش المدرسة، ولا يشارك الأطفال ألعابهم، بل يظل يقرض أظفاره.

في تلك المرحلة من حياتي كنت مسكونا بالمرح والنشاط وحب الحياة، لذلك حين يشرع الأولاد في عمل تقسيمة لمباراة كرة القدم كنت انضم لأحد الفريقين، وأجذب بيدي ثروت الذي كان لا يرغب في اللعب. اتجه نحوه وأشده بقوة لأجعله حارسا للمرمى : دافع عن عرينك، يا أسد!

أجاد ثروت اللعب في هذا المركز الذي لا يفضله الأطفال، فهم يفضلون الجري واللعب في مركز الهجوم لإحراز الأهداف، وأبدى تميزا ملحوظا حتى أنه صار بالفعل حارسا أساسيا لمرمى فريق الفصل.

ارتحت أن سلوى ـ التي كانت تأتي بالزي الأزرق لمدرسة اللوزي الثانوية للبنات ـ قد بدأت تخفف من زيارتها للمدرسة، ومع مرور الأيام اعتمد الطفل على نفسه فكان يأتي ماشيا من بيت العائلة القريب من النهر إلى الطابور.

بعد سنوات طويلة من تخرجه، قابلته يشتري بعض أصناف البقالة من محل معروف، وجدته شابا جميل الطلعة، يحمل نفس الخفر، فسلم علي بحرارة، وربت على كتفي : كيف حالك يا أستاذ ؟

ـ الحمد لله.

ـ لا يمكنني أن أنكر فضلك علي.

ـ أبدا. لم أفعل سوى الواجب. كيف حال سلوى ؟

ـ بخير.

كانت الكلمات قليلة وموجزة، لكنها تحمل مشاعر الود والعرفان، وقد مضى كل إلى طريقه.

حدث أن ارتجت المدينة كلها لحدوث كارثة غير مسبوقة حين انهار البيت على من فيه، ومات العشرات تحت انقاض المبنى، وكان من بينهم ثروت.

مشيت في الجنازة التي لم تشهد المدينة لها مثيلا، وكنت أرى طيف الولد، وهو يدافع عن مرماه ببسالة مرة، وهو يأتيني بالطباشير من عم السيد شميس عامل المدرسة مرة ثانية، ثم وهو يحمل كراسات التطبيق مع زميله حنا يوسف، لأنحني عليها ساعات كي أصححها في غرفة المدرسين.

كانت خطواتي ثقيلة، وأنا أتبع النعوش، سائرا على قدمين مجهدتين، ومنها نعش تلميذي السابق. عدت من الجنازة وأنا في غاية التأثر، وقد استسلمت لخاطر احتل عقلي، وهو أن الدنيا قاسية، وغير منطقية في أفعالها.

عدت لنفسي في الحفل. حين خفت أصوات الموسيقى صار بإمكاني أن أسمعها، سألتها عن البنات الجميلات اللائي كن يجلسن حولها على المنضدة: هل هؤلاء بناتك؟

ـ أبدا، هم من أقاربي. أما أنا فقد تزوجت، ورزقني الله بثلاثة أولاد، منهما شابان وسيمان، اختطفا في عز الشباب.

كانت تتحدث بمرارة وحزن حقيقي، تسلل إلى نبرات صوتها. استرعى انتباهي أنها مدت يدها في حقيبتها، وهي تقدم لي قطعة كرملة : بالتأكيد تذكر ثروت. تعودت منذ طفولته ألا تخلو حقيبتي من الحلوى.

كانت تلبس فستانا باللون الأسود، مطرزا بخطوط فضية عند العنق والكمين. مددت يدي وأخذت قطعة الكرملة، وضعتها في جيبي.

خرجت من القاعة الصاخبة لأستقل سيارة بالنفر كي أعود إلى المدينة، وأنا مثقل بأحزان العالم، فيما نظرتها الحزينة تتبعني حتى وصولي إلى المقهى.

كان أغلب رواد المقهى، يلعبون الطاولة أو الشطرنج أو يشاهدون مباريات كرة القدم العالمية، وأصواتهم المشجعة تتعالى.

يلوح لي وجه سلوى الحزين مشوشا ومضطربا. جلست إلى منضدة خالية وحيدا، في قلبي غصة ، فيما أتحسس بأصابعي قطعة الكرملة.

٢٠١٨/١/٢٤.

الشرسة

زكية مطلقة، وبسبب جمالها وجاذبيتها فهي مطمع لأي رجل بصباص من حارة قبيلة، بل من الحواري المجاورة لبيتها في الحي الشعبي الذي تسكنه.

هي حولاء لكنه ذلك النوع من الحول الذي يجذب قلوب كل ابن أنثى من سكان المنطقة، الذين يندفعون للذود عن حياضهم، ومعاقبة كل غريب يتطلع للبلكونات المطلة على الشارع.

لم تكن قد تجاوزت الثلاثين حين انفصلت عن زوجها الحسيني عيش، وأوصدت الباب من خلفه، فلم يدخل غريب الشقة، ولا قريب.

فضلت أن تبقى وحيدة بعد أن جربت حظها، فلم تجن سوى البهدلة، وتعب القلب، ونقص مالها الذي بدد زوجها أغلبه في سهرات الكيف ومطاردة النساء.

كان الحسيني يعمل نجارا، وله ورشة كبيرة لصناعة حجرات السفرة التي تخصص فيها لكن السوق كان قد أصابه الكساد، وهو لم يتعود أن يصبر كي

يتجاوز المحنة، فظل يستنزف مدخراتها حتى أوشكت على الانتهاء، وحين تنبهت إلى ذلك عرفت بطريق المصادفة أنه يقيم علاقة مشينة مع جارتهم سوسن التي مات زوجها منذ عامين، وكان في حياته يكبس على نفسها فلا يتركها تفتح شباكا أو بابا.

يصعد إليها، ومعه أكياس الفاكهة ويتمدد عندها ليشرب الشاي، ويمارس أشياء أخرى لا يرضى عنها الخالق.

راجعته زكية فيما وصل إليها من كلام الناس فأخبرها بكل غطرسة وصفاقة أنه رجل حر، والحر لا يخشى الشائعات ، وبدلا من مراقبته عليها أن تعطيه ولدا أو بنتا ليقطع ألسنة الفضوليين الذين يدعون أنه لا يحرث أرضه جيدا.

لم تكن زكية ضعيفة لتبكي، أو لتتحسر على حياتها وماله الذي راح لمن لا يستحق، فأغلقت في وجهه الباب حين جاء قرب الفجر، متطوحا من ثقل الكيف عليه، رفضت تماما أن يدخل، وأبقته على السلم يشتم ويلعن ويتوعد.

لو أن له ولدا لخافت أن تفعل ذلك حتى لا ينهض من نومه مذعورا، فكل فعل خاطئ يترسب في الذاكرة لكنها وحيدة، ولديها من رجاحة العقل ما يجعلها تختار مصيرها بدونه.

تدخل الأهل محاولين رجوع المياه إلى مجاريها، لكنها كانت قد كرهت جنس الرجال، وقررت في لحظة صفاء مع نفسها أن تعيش حياتها بمفردها،

فلا يطالبها أحد بالطبخ والكنس والتنظيف وغسيل الملابس، وفوق كل ذلك يركب عليها بدون مقدمات، ثم يسلبها مالها الخاص الذي ورثته عن المرحوم أبيها الذي كان تاجر غلال، وكسيب طوال حياته.

البيت بيت عائلتها، وأمها العجوز تسكن الشقة التي في البدروم، وهي تقطن الطابق الثاني، أما الطابق الذي يليها فهو لشقيقها إبراهيم الذي يعيش في العراق منذ عشر سنوات، بينما زوجته خديجة تعيش مع طفليها خالد وشعبان وتربيهما تربية حسنة.

بعد أن صارت مطلقة ظهر من يغازلها بكلمات لم تكن تسمعها من قبل حتى في شبابها وهي آنسة، فعبدالرحمن الغزلاني يقول لها، وهي تتجه إلى السوق بصوته الرفيع الرقيع : يا جميل يا أسمر.

ويتتبعها حين تشتري الخضر فيوصي البائع بها، ويمد يده لينتقي أفضل حبات البطاطس ويطبب الميزان. ولما مد يده كي يطبطب على كتفها لطشته بالقلم على وجهه فأسقط في يده، وانصرف راجعا، مكسور الخاطر.

إن أي رد في هذا السوق المزدحم معناه أن يتسبب لنفسه في فضيحة، لذلك آثر الانسحاب لكن قلبه سكنته علة لم تتزحزح عن موضعها أبدا.

أما عبدالسلام الكهربائي الذي اتصف بأن عينيه زائغتان فقد جاء الشقة ليصلح وصلة كهربائية، ولما طلع السلم ليصلح العطب طلب منها أن تمد يدها بالمصباح، وبدلا من أن يمسكه بيده أمسك يدها بنعومة وهيام فرمته بالمصباح الذي ارتطم بجبهته، وسال الدم.

هرول من الباب الذي كانت قد تركته مواربا، وهو يصيح في استغاثة مخيفة : آه يا رأسي. آه يا رأسي.

لقد توقعت مثل هذه الأفعال، لذلك لم يكن مفاجئا لها، ولا غريبا أن يكون رد فعلها مباغتا، قويا، عنيفا.

قال لها عبدالحميد الغندور، المحامي النابغة، وهو يتابع لها قضية قطعة أرض كانت لأبيها، ولم تأخذ موافقات إدخال الماء والكهرباء والغاز الطبيعي : الأمور معقدة، وسأكرمك ولن أحصل منك على أتعاب. نظرة رضا منك تجعلني في قمة سعادتي.

قام ليدور حول مقعدها محتضنا إياها من الخلف، ولما لم تبد رد فعل مساويا للفعلة فقد تمادى أكثر، وحاول تقبيلها.

حين عاد لمقعده، اقتربت من مكتبه الذي كان يجلس خلفه، لملمت الملف الذي كان يفر أوراقه، سحبته، وبدون أن تتفوه بكلمة، ركلت المنضدة التي كان عليها كوب عصير المانجو فانسكب على السجادة، وتراجع في جلسته حتى صفقت الباب خلفها.

زكية امرأة جميلة، وهي تعرف ذلك. قبل طلاقها لم تكن تواجه بمثل هذه الأفعال، حدثتها أمها في حجرة جمعتهما بالبدروم : ابحثي عن رجل يحميك؟

ـ أنا قادرة على حماية نفسي.

ـ لكن كلام الناس؟

ـ لا يهمني.

ـ طلب الحسيني أن تعودي له.

ـ بعينه. مستحيل رجوعي إليه .

ـ يقول أنه أحق من الغريب؟

ـ كلام فارغ.

في حفل زفاف جارة لهم، ارتدت ثوبا جميلا أزرق اللون بدقة سوداء، وضعت فوق رأسها طوقا أبان شعرها فاحم السواد.

وضعت بعض البودرة على وجنتيها، وأحمر الشفاه، كما كحلت العينين فبدت في أحلى صورة.

وقفت لتشاهد فرقة الزفة تقتاد العروسين للقاعة الفخمة المكيفة. سمعت امرأة تقول لأخرى بجوارها : زكية أحلى من العروس.

خشيت أن تحدث فتنة، فمشت نحو شاطئ النيل، جلست على منضدة بمفرش أبيض عليه مزهرية.

جاء شاب لا تعرفه وجلس أمامها : مساء الخير.

لم ترد على تحيته، فكرت أن تواصل طريقتها في البطش بكل من يعترض طريقها لكنها تريثت هذه المرة. لم تعرف السبب، ربما لأن نبرة صوت الشاب كانت هادئة ومطمئنة.

عاد للكلام من جديد : رأيتك في الحفل. استرعى انتباهي جمالك. الشيء الأكثر أهمية أنك كنت تقفين وسط الحشد واثقة من نفسك.

ضحكت: وهل من المفترض أن أفعل العكس؟

امتد حبل الكلام، عرف منها أنها مطلقة، وعرفت منه أنه حاصل على بكالوريوس الهندسة وبلا شغل.

مدت يديها محتجة : ابحث عن عمل. شهادتك مطلوبة.

ـ أريد السفر خارج البلاد.

ـ لا تفعل ذلك. أخي إبراهيم يعيش في العراق، وطفلاه لا يكادان يعرفانه.

ـ أريد أن أتقدم لك؟

ـ لا ينفع. انتهيت من هذا الأمر تماما. كما أنني أكبر منك بعامين.

ـ أنت جميلة وجذابة.

ـ هذا الكلام تقوله لفتاة غريرة. الجمال يذهب، والجاذبية تتبدد.

ـ يكفي أن أراك من وقت إلى آخر. عندي شقة مناسبة لكلينا.

ـ بمعنى ؟

ـ أن نتعرف أكثر، نتبادل الحديث، نقترب.

ـ والنهاية؟

ـ لا نهاية للحب.

هزت رأسها، وقبل أن يفيق عاجلته بلكمة في فكه. لم تلتفت خلفها بتاتا، وهي تعود للحفل.

كان العريس يراقص عروسه بثوبها الأبيض، وهو ببدلته السوداء، فيما كانت الدفوف تدق بأصابع مدربة.

تدرك أنها شرسة وعنيفة ، ربما لأنها تريد أن تبقى على وحدتها، ورأت الشاب يتسلل بعيدا عن المكان بقدمين متخاذلتين ، كان يتحسس فكيه، ويمضي في طريقه مرتبكا.

عادت زكية لأمها، أيقظتها من النوم، قالت لها بصوت قوي لا أثر للعاطفة فيه : ارسلي في استدعاء الحسيني.. ابن الكلب !

٢٥ / ١ / ٢٠١٨.

الكمين

فتحي المر لعب بعقل البنت عطيات الطويل. مثل الشباب الذين يلعبون بالعين والحاجب، فعمل البحر طحينة، أوقعها اللعين، ودخل بها بدون أوراق ولا مستندات، ولا أختام أميرية، وتمتم على الخبر تماما.

الشاب الحويط بعد ما فعل فعلته صار يتهرب من البنت، يعطيها الموعد بعد الموعد فيخلفه. تنتظره على ناصية الشارع فيحضر من زقاق خلفي، حتى ظنته سرابا.

الورشة ذاتها التي شهدت أول لقاء بينهما صارت مواربة الأبواب، وهي تنزل من بيتها، كي تذهب إلى معمل الحلويات، فتشتغل في صناعة المشبك بلا نفس.

لاحظت تحية أمها تعكيرا في مزاجها، وعزوفا عن تناول الطعام، وهي التي كانت تحضر من شغلها، وقبل أن تستوي على كنبة الصالة تصيح في أمها بروح مرحة : ماذا طبخت لنا اليوم يا توحة ؟

تذهب إلى المطبخ لتكشف الحلل، تمسك بملعقة، وتذوق الحساء والخضر، وتنتش قطعة لحم على السريع.

من حوالي شهرين صارت منكسرة، عازفة عن تناول طعامها، تدخل لتنام قبل موعدها، فتغطي جسدها كله بعد أن كانت عادتها أن تظهر جانب وجهها ليكون في النور.

تسأل الأم نفسها : ماذا حدث للبنت الغلبانة المسكينة التي مات أبوها مصدورا منذ خمسة أعوام، فاستدانوا حق غسله، وكفنه، وخروجه.

زنقتها في الحجرة الداخلية المجاورة للمسقط، وصممت على معرفة السبب الذي غير أحوالها. البنت تنظر نحوها شاردة، ثم تنخرط في البكاء. أرسلت مرسالا لخال البنت كي يشاركها حل المشكلة، ولا غرابة فالخال والد.

ضغطت الأم تحية ، وضغط الخال عوض، وكان خلفهم ـ الثلاثة ـ الباب مغلقا، وربنا أمر بالستر.

رفضت البنت أن تبوح بكلمة، تركتهما يتخبطان في ظنونهما، وجرت نحو الحمام، سكبت الجاز على ملابسها، وحين أشعلت عود الكبريت انطفأ بفعل الريح البحري القادم من الشباك، فأدركت الأم أن في الأمر مصيبة.

جرتها من شعرها، جزت على أسنانها : قولي لخالك عمن ضحك عليك، وإلا سأقتلك ؟

لطم الخال صدغيه، زغر في شقيقته : لا تفتري على البنت. أتصل إلى هذه الدرجة؟ الدنيا لسه بخير.

اعترفت عطيات بما فعله فتحي المر حين أغواها، واستغل ضعفها كي يعاشرها. لم تكن لها خبرة في هذه الأمور، فرضخت لطلبه، وظنت الأمر سهلا.

كان من الضروري التعامل مع المصيبة بهدوء، وبدون ضجة. أخرج عوض ـ وهو يعمل نجار باب وشباك ـ أربعمئة جنيها، وتفاوض مع مجرمين عاتين مدربين على مثل هذه الأمور على إحضار الجاني بهدوء وبلا شوشرة. لو حاول التملص فقلم على الوجه كفيل بإخراسه.

مجرمان تابا عن الحرام، وراحا يعملان في الحلال : الأول أسمر، طويل عريض، بدون صف أسنان علوي، والثاني أبيض البشرة، قصير، ينط الشر من عينيه، وفي رقبته حز سكين قديم.

أحضروه من ورشته بالحيلة، حملوه مقيدا في عربة نصف نقل، وقفت أمام الباب، وصعدا به وهو يصرخ : الحكومة ستؤدبكما ، ولن أعترف بشيء.

لطمه الخال حالما حط قدميه في الصالة، ولم يفكا قيده أبدا.

كان المأذون يتململ في جلسته، وهو يعدل الجبة والقفطان، يبسمل و يحوقل، وينظر نحوه بعداء حتى ينتهي من مهمته، وهو يهرش رأسه : يا عالم كل شيء بالخناق إلا الزواج فبالتراضي.

جار وحيد كان بمثابة الأب للبنت التي لم تكف عن البكاء هو خليل قشطة. سألها بإيجاز: هو الذي عملها معك ؟

هزت رأسها بالإيجاب، فصفعه الخال، وأدمى فمه، نطق والصفعة قد تركت علامة حمراء على الصدغ : لن أوقع على قائمة منقولات.

قال الخال: تغور القائمة. البنت ستعقد قرانك عليها.

صرخت تحية، وهي تمسك بخناقه : أبدا، بناتنا ليست رخيصات. سيوقع على القائمة، ورجله فوق رقبته.

تدخل الجار: المهم هو توقيعه على القسائم، اصبري يا أم عطيات.

طلب المأذون بطاقتي العريس والعروس. مدت الأم يدها ببطاقة البنت، وكانت جاهزة عند الطلب، أما فتحي المر فقد أنكر وجود البطاقة من أصله. فتشوه فوجدوها مخفية في جوربه.

طلعوها، وهو يرفس، ناشده الخال أن يتصرف برجولة فجعر بحنجرته، عندها صفعه الأسمر الطويل العريض، قال له وهو يقسم بتنفيذ وعيده : لو رفضت سأقطع ذكرك!

بكى فتحي المر بكاء مريرا، وطلب منهم التريث، وإحضار أمه وأبيه : لو سمحتم، يا جماعة.. الزواج إشهار.

عندها لكزه أبيض البشرة القصير بإصبعه التي تشبه البريمة في صدره حتى أن فتحي تألم، وأنّ أنينا موجعا : عندما أغويتها، هل طلبت حضور أمك أو أبيك.

أسقط في يده، فكوا الحبل من معصمه الأيمن، وقعت البنت ووقع فتحي المر، وبصم كل منهما. ووقع الشاهدان: الخال والجار.

طلع صوت فتحي بصعوبة : فكوا قيودي.أرجوكم.أنا زيكم ابن ناس.

كانت يده اليمنى فقط هي التي سمح بفك قيدها فيما بقيت يده اليسرى مقيدة، وقدماه مشدودان بمنتهى الإحكام.

تلا المأذون الخطبة، ودعا العروسين للتحلي بالأخلاق الحسنة، فالزواج مودة وسكن.

ولول فتحي معترضا : لا يوجد عندي سكن!

نهره الأسمر، الطويل العريض : اخرس.

ولطمه أبيض البشرة، القصير : لك عين تتكلم؟!

طلب المأذون رسوم عقد القران فمد الخال يده بمائة جنيه، وهي التي كانت بجيب سترة فتحي المر. ولما كان الجار خليل قشطة بمثابة الأب فقد دفع مائة جنيه أخرى، وتبقى حوالي أربعمائة جنيها، لأن الحكومة رفعت الرسوم رفقا بالمواطنين البسطاء حتى لا يكررون غلطة الزواج.

لم يكن مع الأم إلا جنيهات معدودة، فعاودت البكاء. أسقط في أيدي الجميع.

نغز الأسمر، الطويل العريض زميله آمرا : طلع أتعابك. ألا تفعل شيئا لوجه الله؟

وضع أبيض البشرة، القصير وجهه في الأرض، تمتم قائلا : الحال واقف يا معلمي.

وبعد تفكير : على العموم، نحن أولاد بلد جدعان.

أخرج الرجل الأول مئتي جنيها، وأخرج الرجل الثاني مثلهما. ولما طبق المأذون يده على المبلغ، أقسم بالله أنه تنازل عن مئتي جنيه إكراما لسيدنا الحسين، حفيد النبي.

وضع المأذون دفاتره في حقيبته، ولم يكن هناك حلوى ولا ملبس. قال وهو على وشك الانصراف: زواج ميمون إن شاء الله.

قال الجار الطيب : اجلس مع عروسك يا فتحي.

وقال للبنت التي كانت في غاية الإحراج : أنت ابنة حلال. ضعي زوجك في عينيك.

زغردت الأم زغرودة منكسرة. لكن الخال أمرها أن تزغرد بعلو صوتها، فالحق يعلو، ولا يعلى عليه.

قال الرجل الأول، وهو يجلس نافضا يديه من المهمة : أسقونا شربات. نبل ريقنا الذي نشف.

وأمن الرجل الثاني على كلامه : أو اعملي لنا شاياً يا أم العروسة.

فتح باب الشقة، وصعدت نظرات البنت حتى استقرت على وجه فتحي : أنا معي أسورة، ممكن نبيعها، ونقضي أسبوعا في عشة برأس البر.

غضب فتحي وانتفض : أنت زوجة رجل. العشة سأدفع إيجارها كاملا.

بعد أسبوع واحد علقت المناديل وأضيئت الأنوار، وجلجل صوت محمد رشدي في الميكروفون المعلق على بيت العروس : " قولوا لمأذون البلد.. ييجي يتمم فرحتي". لكنه كان قد جاء وتمم كل شيء. وربك حليم ستار.

مساء الأحد ٢٨ / ١/ ٢٠١٨.

باكو بسكويت

تراجعت السيارة بأقصى سرعتها مخلفة وراءها سحابة من الغبار، وما لبثت أن توقفت لثانية قبل أن تندفع إلى الأمام، ثم راح الشاب يلف بها حول نفسه في دائرة كبيرة بلا توقف، حتى أن العجل كان يحتك بالإسفلت محدثا ضجيجا مزعجا، وأحيانا كان يُظهر شررا متطايرا رغم أن الوقت كان بعد الظهر بقليل.

قام عدد من الجالسين على المقهى القريب ليستفسروا عما يحدث، فعرفوا أن الشاب يقدم استعراضا أكروباتيا احتفاء بعرس قادم من الاتجاه المضاد.

فما يقدمه أمامهم ما هو إلا نوع من التحية لإبراز مهارته، وتقديم نقوط من نوع جديد.

تلك هي مدينتي المحبة للعمل، والمشحونة بالشغل، والتي ترفع راية " المصلحة" عن كل ما عداها، وقد انقلبت سلوكياتها رأسا على عقب في السنوات الأخيرة، وقد وقفت حائرا، متجمدا في مكاني حتى ينصرف الشاب الطائش بسيارته المصيبة، لكنه ظل يلف ويدور.

نظرت في ساعتي، قلت لنفسي : أتأخر خمس دقائق بدلا من أن يصدمني الوغد.

تكونت حوله دائرة من الأطفال والشباب، راحوا يشجعونه، ومنهم طفل بائس كان في طريقه للورشة ممسكا بصينية عليها أكواب الشاي، وشاب معفر بتراب رمادي قادم من عمارة يجري هدمها.

عجوز رأى ما يحدث فرفع صوته المرتجف ليشتم الشاب المتهور : مجنون ابن مجنون.

قالت امرأة كانت تضع بقجة كبيرة فوق رأسها، راجعة متعبة من السوق لتركب قطار المغرب : فحل جاموس يسوق سيارة!

تنهدت فتاة كانت في طريقها لدرس خصوصي: سيارة مثل هذه تنقلني بسهولة إلى الساحل الشمالي حيث قاعات الديسكو. لوحت بيدها لشيء بعيد لم أره.

عبرت أسراب النمل من شق في جدار بيت مهدم، نحو مكان في الجانب الآخر، وتوقفت خوفا واحتراسا، ولما لم يكن هناك النبي سليمان فلم يسمع أحد شكواها، وهي تتكلم.

الشاب كان يرتدي بدلة سوداء و قميصاً شاهق البياض، ورابطة عنق حمراء بنجوم زرقاء شبيهة بتلك التي يضعها رئيس أمريكا ترامب حول عنقه الغليظ، ويمسك بسيجار مشتعل، يدخن وهو يحرك مقود السيارة بيد واحدة.

في تلك اللحظة كان راديو القاهرة يعلن تصريحاً لمتحدث من البيت الأبيض يؤكد نية بلاده في نقل سفارة أمريكا من تل أبيب إلى القدس. حوّل صاحب المقهى المؤشر لمتابعة مباراة عالمية في كرة القدم، وهو ما يعني طلبات جديدة للزبائن الذين كانوا في وضع استرخاء.

الولد منصور قشطة كان قد انتهى من فترة الدراسة الصباحية، وقد خلع ملابسه وارتدى لبس الورشة، وفيما هو في طريقه لحي الأعصر شاف الدائرة من بعيد فمشى نحوها متكاسلا.

وصل نصف نائم، وصعد على الرصيف ممسكا باكو بسكويت أعطته إياه أمه لأنها لم تنته بعد من سلق حبات البطاطس، ومعها بيضة لكل طفلين.

كانت السيارة قد أسرعت في دورانها بشكل جنوني، حتى بدت مثل النحلة الدوارة. لم يعد يشاهد الناس من بداخلها، لكن لونها الأحمر الفاقع انعكست عليه أشعة الشمس، فخطف بصر الولد منصور، ركن ذقنه على راحة يده.

قال في نفسه : لو أن لي سيارة مثل هذه فسوف أسافر بها إلى مكة لأزور النبي، وأضع يدي على شباكه.

واصل أفكاره المشتتة : سأجعل أمي التي ترتق لي ثيابي كلما انقطعت، تركب في الكنبة الخلفية، وسأترك أبي الذي يشرب الدخان، ولا يعطيني مصروفا ككل زملائي في الفصل.

بسبب سرعة الدوران أفلت مقود السيارة من يد الشاب، فصعدت فوق الرصيف. صرخ الناس من شدة الرعب، وقد سترها ربنا، فلم يجرح أحد من الواقفين، لقد تصدى عامود النور لمقدم السيارة فهشمها، أما الولد منصور قشطة فقد أفلت باكو البسكويت من يده، متناثرا على الأرض فاختلطت قطعه المدورة بالتراب.

بكى لأنه سيقضي اليوم جائعا في الورشة، وستزقزق عصافير بطنه حتى يعود في المساء لبيته فيأكل رغيفا أسمر، مع حبات من البطاطس، ونصف بيضة.

٣/ ٢/ ٢٠١٨.

في الفرن

جاءت جلستها في مواجهتي تماما. لقد خرجت من مقر الوظيفة مجهدا، مررت على سوق السمك، تجولت بين المحال التي تضع أسماكها على طاولات خشبية، وكان التعب قد نال مني فاقتصدت في الكلام ، واشتريت بدون مساومة، ولم أدقق في طبة الميزان.

سرت كالمنوم حتى وصلت إلى عتبة الفرن، رميت القرطاس على النصبة، وأخذت بيدي رقعة من الخشب عليها رقم ٧٠. وضعت ذقني تحت باطن كفي، واستسلمت لتفكير عميق في متاعب الوظيفة التي تكاد تقصف العمر.

رأيتها أمامي، تجلس بين طفلين متفاوتي العمر على مقعد خشبي بلا مساند، وهي تنقل بصرها بين الزبائن، ثم تحط نظرها على الجريدة التي كنت قد بدأت أتصفحها في كسل.

شعرت أن دور الزكام يوشك أن يكتم انفاسي، قمت معتدلا، وضعت

يدي في جيبي، وسحبت منديلي، قربته من أنفي المحتقن، وبدأت أسعل ثم طويت الجريدة تماما وأبقيتها بجانبي.

طفلها الأصغر كان يلعب بكرة من المطاط، انفلتت من يده وجرت ناحيتي، في لمح البصر وجدتها تقفز من مكانها، تنحني تحت قدمي لتأخذ الكرة، وفي نفس اللحظة وجدتها تكبش بأصابعها على ورقة مالية من فئة الخمسين جنيها.

طبقت أصابعها عليها، اعتدلت من انحنائها، وعادت لجلستها دون أن تنبس بكلمة لمكانها بين الطفلين الذابلين.

كان عندي يقين أن الورقة المالية قد سقطت من جيبي أثناء إخراج المنديل، واعتقدت جازما أنها قد لجأت لحيلة رمي الكرة كي تخطف المبلغ. استغلت تعبي وشرودي واستلت الورقة المالية التي كانت متداخلة مع نشارة الخشب.

سددت نظرة عدائية تجاهها، لكنها راوغت بالبؤبؤ، أحسست أنها تتنمر استعدادا للمعركة القادمة.

قررت بيني وبين نفسي أن أتريث، وأعيد حساباتي، فلربما كنت مخطئا.

أخرجت القلم، ورحت أحسب بدقة ما صرفته بتدوين أرقام على الجزء الخالي من الكتابة في هامش الجريدة.

سجلت أثمان الخبز والفول المدمس والطعمية، ومصروف الأبناء، ثم علبة السجائر، وكيس البرتقال، وثمن السمك، وحزمتي الفجل والجرجير.

جمعت وطرحت وتوصلت إلى أن المبلغ الناقص يقع بين ٤٠ جنيها إلى ٥٠ جنيها. نظرت نحوها في عداء واضح، وسددت نظرة للفران الذي كان يضع قطع الخشب على الكوريك، ويدفع بها نحو النار فتزداد اشتعالا.

قلت لشخص بجواري دون سابق معرفة : السارق يدخل النار.

رد علي بدون تفكير: نار جهنم لا يحتملها كائن.

شعرت بالرعدة تستولي على كيانها كله، ربما لهذا السبب مالت على الطفل الذي على يمينها فاحتضنته بقوة.

قلت لنفسي : اطرق الحديد وهو ساخن.

طوحت بيدي وخاطبت شخصا كان يستند بظهره على حائط يتحرك عليه برص له نظرة قلقة : ربك لا يبارك في الحرام.

نظرت نحوها فوجدتها ترتعد أكثر، وقد مالت هذه المرة لطفلها حافي القدمين فضمته نحو صدرها، وأوشكت على البكاء.

رأيت في عينيها نظرة انكسار. راجعت نفسي، قلت بدون صوت: كم أنت قاسي القلب وخشن. ربما كان هذا المبلغ يسد نقصا عندها.

قررت أن أصفح عنها، فالمبلغ بالتأكيد هو ملك لي، ومن غير المناسب أن اتهمها بالسرقة، فهي لم تمد يدها في جيبي، عندما كانت تتحرك باتجاهي كانت تسحب كرة من المطاط رمى بها طفلها الأصغر، الذي لا يضع حذاء في قدميه.

سرحت في مشاكل المكتب، ورئيس القلم الذي لا يشبع من النفاق، وتذكرت أنني قد اشتريت ملابس الشتاء منذ أسبوع. لا أعرف لماذا شعرت بالبرودة عندما تفحصت ملابس الطفلين. كانت ثيابهما رقيقة بما لا يليق بفصل الشتاء الذي يرسل برده فينخر العظام، لاحظت أن جسد الصغيرين في غاية النحول. كانا لا يكفان عن الحركة وهي تحاول السيطرة على شقاوتهما.

قلت لنفسي باحتجاج مضمر: هذا لا يدفعها لشيء مما فعلت.

ساد صمت ثقيل في الفرن والنار تئز، ويخرج بعض الدخان من الفوهة المفتوحة، وزبائن يدخلون الفرن وآخرون يخرجون. رائحة السمك المشوي تجري الريق.

تصنعت النوم، وكنت قريبا من حدوده، أغمضت عيني نصف إغماض، واختلست نظرة. رأيتها تقرض أظفارها فيما هي تنظر نحوي في تحد وعداء. هل تتصور أنني سأشهر بها أمام زبائن الفرن ؟

قلت لنفسي من جديد: لأعتبر نفسي قد تبرعت بالمبلغ للطفلين. وهنا هززت رأسي اهتزازة ميكانيكية. ربما لهذا السبب أشاحت بوجهها وراحت تراقب البرص الذي كان قد وصل للحرف الذي يبدأ السقف من عنده.

صاح الفران بالرقم ٧٠، فانتزعت قدمي بصعوبة، وقمت لتسلم السمك الساخن في كرتونة صغيرة. دفعت مبلغ الشواء، وضعت قرطاس البرتقال ومعه الجريدة فوق الكرتونة.

تمهلت في الخروج وتوجه بصري للسماء التي كانت سحبها الرصاصية تمضي متثاقلة. حين تجاوزت العتبة التفت فجأة نحوها.

وجدتها تخرج منديلا صغيرا وقد طرزته بوردة صغيرة في طرفه. تمسح دموعها وتربت على كتفي ابنيها.

قررت أن اتوجه بأقصى سرعة نحو بيتي ، قبل أن ابتعد عن مكان الفرن، سمعت وقع أقدام. كانت المرأة تجري خلفي : يا أستاذ.. هذا المبلغ وقع منك!

٢٠/ ٢/ ٢٠١٨.

مقهى السلطان

في مقهى السلطان دخل الشخص الملتحي، صاحب النظرة الوحشية، وهجم على شخص آخر كان يجذب أنفاس النرجيلة، ويمد رجليه في استرخاء ممتع، وجره بأقصى سرعة، وبكل قوة، بيديه القويتين حتى باب المقهى.

كمية الغضب تبدو في نظرات الملتحي الذي كان يغمغم بكلمات مبهمة لكنه يكررها بلا توقف : مجرم، عتل، زنيم.

أما شارب النرجيلة فقد كان يرتدي بدلة رصاصية اللون ويطوق رقبته برابطة عنق زرقاء بنجوم صغيرة حمراء. لقد صار كالخرقة البالية حيث هرب الدم من وجهه فانقلبت سحنته.

رفع الغاضب يده ليصفعه لكن يدا ثالثة أوقفته، وصنع الشخص القادم من الشارع بجسده عائقا يحجز بين الرجلين : الغاضب والخائف.

كان هجوما مباغتا لم أتبين سببه، وكانت جلستي وراء لوح زجاج شفاف بحيث أرقب السائرين، ولا أتورط في الحديث مع أي شخص لا أعرفه. خبرة الحياة جعلتني أفعل ذلك دائما، فليس هناك أفضل من أن تصنع عزلتك بنفسك، وتدخل شرنقتك بلطف، حتى " صباح الخير " لا أنطق بها لغير الجرسون الذي يعرفني وأعرفه. يرفع يده بالتحية دون رد، ويكافئني على أدبي الجم بأن يحضر لي كوب الشاي ومعه زجاجة المياه المعدنية قبل أن أعتدل في جلستي.

قال الشخص الثالث، وهو يحاول الإصلاح بين شخصين لا يعرفهما : الصلح خير. ما انكسر يمكن إصلاحه.

لكن الرجل الملتحي حينما سمع هذه العبارة تحديدا ثار من جديد، فكان يقفز في الهواء حتى تطول يده وجه الرجل المتأنق، صاحب البدلة الصوف رصاصية اللون.

جاء شخص رابع يرتدي جلبابا بلديا، ويضع على كتفه شالا مزخرفا مرسوم عليه أصداف بحرية يخلفها البحر في مده وجزره. عرفت أنه صاحب المقهى من شدته ونهره للجرسون : كيف سمحت بوجود متشاجرين داخل حرم المقهى يا أهبل ؟!

وقد رفع صوته الذي علا على الأصوات جميعا ، وسيطر على مجرى الأحداث كابن بلد أصيل : صلوا على النبي.

بقدرة قادر جلس الرجل الملتحي بينما ظل صدره يعلو ويهبط، وهو يتنفس بصعوبة : ابعد عن وردة.

حرك المتأنق يديه، وجرب أن يؤثر بنبرته الخفيضة في الجالسين جميعا : ما هي إلا زميلة بالمكتب.

ضرب الرجل الملتحي المنضدة بقبضة يده، وأخرج زفيره أشبه بالحمم: لا تصطنع الغباء.

خرجت هذه المرة عن عادتي فبالتأكيد هناك أزمة بين شخصين والسبب امرأة. تحركت بمقعدي حتى صرت قريبا من الخصمين.

طلب صاحب المقهى كوبين مثلجين من الليمون الطازج رغم برودة الجو : ليشرب كل منكما كوبه.

تورطت وصرت قريبا من المعمعة، فشاورت بيدي وطلبت كوب ليمون مع زيادة ملعقة من السكر. جاء الجرسون ووضعها على الحافة الرخامية فحركت الصينية بيدي وزحفت بمقدار بوصتين من جلستهما.

قال الرجل الملتحي، وهو يكبح غضبه: لا شأن لك بها. دعها لبيتها. أسمعت؟

هز الرجل المتأنق رأسه ولم يحاول أن يدافع عن موقفه، فضل أن يتوقف عن الكلام : كل طلباتك أوامر. أنت أخ كبير بالنسبة لي.

هز الرجل الملتحي رأسه في غير اقتناع : من الأفضل أن تنقل عملك لمكتب آخر. لأنني في المرة القادمة سأفتح بطنك!

حين سمعت هذه العبارة توترت أعصابي، ورحت أختلس النظر لجيب الرجل فلاحظت بروزا واضحا تحت طيات القماش مما يعني أن التهديد حقيقي، وليس كلاما يطلق على عواهنه.

تحركت نحو الجلسة أكثر، ولما كنت أتسلح بعظمي الواهن وبكبر سني الواضح فقد رأيت أن أتدخل درءا للمشاكل.

قلت للرجل الملتحي بقدر من الهدوء: ربما كانت شكوكك في غير محلها؟

نظر نحوي بشكل مريب، حدجني بنظرة عدائية : لا تدعني اتكلم، ربنا أمر بالستر.

قلت في عقلي : ستر من؟ وردة أم الشخص المتأنق؟

مال على أذن غريمه، وهو يتحدث بجمل مرتجفة، متقطعة : الويل لك لو كررتها وجلست في المقهى المواجه للبيت. لو رأيتك هناك فسوف أقتلك.

كنت أتخبط في شكوكي وقلة حيلتي : التهديد بالقتل أمر جدي. ماذا فعل هذا الرجل صاحب النظرة الوديعة ليوقع وردة؟

قال صاحب المقهى وهو يرى كوبي عصير الليمون كما هما، فكل من الخصمين كان في شغل شاغل عن شرب أي شيء : تفضلا العصير. سيهدئ أعصابكما.

يد الرجل الملتحي كانت أسرع فرفع الكوب، قربه من شفتيه، عبه مرة واحدة فيما امتدت يد الرجل المتأنق فحمل كوبه بيد مرتعدة، حين انتهى قال بصوت فيه نبرة تضرع : الحمد لله.

هنا عاجله الرجل الملتحي : تحمد ربنا دون أن تنفذ كلامه ؟ يا أخي غريبة؟!

تدخلت مرة أخرى بجملة لم يكن لها محلٌّ من الإعراب : السماح.

رفرف طائر الصمت على الرؤوس، قال الرجل الملتحي : أبعد عن أهل بيتي، أو أبعدك أنا من الدنيا كلها.

قال صاحب المقهى، وهو يريد فهم الموضوع من أوله : طيب. لماذا شككت في هذا الشاب تحديدا.

أطرق الرجل الملتحي في الأرض، نطق بصعوبة : هذا الشخص اشترى لها دبدوبا أحمر !

رد الرجل المتأنق دون أن يفطن أنه قد وقع في الفخ : هي التي اشترته من حر مالها.

هنا قفز الرجل الملتحي من جديد، وأنشب أظفاره في الجزء الظاهر من رقبة غريمه، ومن جديد عادت حالة الارتباك ومحاولة الجالسين إبعاد كل منهما عن الآخر.

انتزع صاحب المقهى الكلام، صاح بصوت جهوري: أبعد النار عن الكبريت.

نظر بكل حدة للرجل المتأنق : كف عن عبثك. لصالحك قبل غيرك.

في تلك اللحظة دخلت شابة جميلة في فستان أحمر له ذيل "كالوش " واسع، ربما في الثلاثين من عمرها، تقدمت من الدائرة، رآها الرجل الملتحي، صاح بها : وردة.. ما الذي أتى بك إلى هنا؟

ردت على الفور: صوتك ملأ الحارة كلها فجاء من يحذرني من مغبة وجودك هنا. أنت لا تحسن التصرف.

نظرت للرجل المتأنق.: اذهب يا أستاذ صلاح إلى بيتك، ولا تخف.

قال الرجل الملتحي وهو يستعيد غضبه : تدافعين عن عشيقك.

كانت شخصيتها قوية بما يكفي للرد عليه : والله ليس بيننا أي شيء مشين. هو مجرد زميلي في العمل.

قاطعها الزوج : والدبدوب الأحمر؟

قالت وهي تبكي : اشتريته من حوافز شهر يناير. لو كنت أعلم أنه سيثير ريبتك ما اقتنيته.

قال الرجل الأنيق، وقد عادت الدماء لشرايينه: أسمعت؟! قلت لك هذا، فلم تقتنع بكلامي.

ـ يبدو أنني كنت على خطأ.

كانت هذه هي الجملة التي نطق بها الرجل الملتحي قبل أن يترك مكانه. وبينما هو يستعد للخروج دس يده في جيبه، وأشهر المطواة بعد أن فتحها فبان النصل لامعا.

غرسه في قلب الرجل الأنيق، وقع على الأرض، صرخت المرأة هلعا : قتلته؟!

أحاط رواد المقهى بالرجل الغارق في دمه بينما تحرك الرجل الملتحي بكل هدوء ليجلس على مقعد قرب الباب الخارجي : من فضلكم.. استدعوا لي الشرطة.

٢٢ فبراير ٢٠١٨.

ذيل سمكة

زينب هانم ركبها عفريت. وهانم بقية اسمها المدون في شهادة الميلاد، وقد أصر عليه الأب، وهو يستخرج شهادة الميلاد من السجل المدني. العفريت لا يحضر إلا فجأة، بدون مقدمات، بينما هي في الحمام تستحم، أو وهي في حجرة النوم أمام المرآة تستكمل زينتها، وأحيانا فوق السطح، وهي تحبس الدجاج في العشة التي لها فتحة من الجريد، مطل على باب يؤدي إلى السلم.

قالت زينب هانم لأبيها عن اللحظات التي تسبق حضور العفريت وركوبه إياها، فهي تشعر بسخونة في الوجه، وتنميل أطرافها ثم تحس بوجع في منكبيها قبل أن يستولي العفريت على كيانها كله.

إنها تسمع صوتا يهدر في أذنيها، وكلاماً يخبرها بمنتهى القسوة أن تسلم نفسها للنداء أيا كان ؛ تسير أو تقعد أو تنام فتحاول مقاومته بالارتماء على الأرض فيعاندها ويكاد يشل يديها وهي تحاول المقاومة.

عرضها الحاج لطفي الفيومي على شيوخ من منطقة قريبة، فحصوها

وهي في حجرة معتمة، قدموا لها أكواباً من الجنزبيل وروح الورد، كتبوا لها رقى شرعية لكن العفريت ظل يزورها.

علم ابن عمها ناجح مختار الفيومي بالحالة من والدته، أشفق عليها، ذهب إلى والدها، وأخبره ان العلم تقدم، وكل مرض في الدنيا له شفاء. اصطحبها إلى دندوشة، وهو طبيب نفسي حاورها وجلس معها أكثر من ساعة، وأخبرها أن ما يحدث لها نوبات أقرب إلى الصرع يمكن أن تشفى منها بالعلاج.

ربت على كتفيها وأمسك يديها برقة، وعرفها أن المقاومة تبدأ من داخلها: نعم، عليك أن لا تسمحي له باختراقك.كوني صلبة لو سمحت.

نظرت نحوه في حيرة، فشجعها بإيماءة من رأسه، ولما كانت جميلة، ولم تدخل دنيا فقد جذبتها روحه النبيلة، فقررت أن تستكمل علاجها معه.

جلسات، وفي كل مرة يشجعها أكثر من ذي قبل، وقد جاءت بصورة عبدالحليم حافظ الملونة، وعلقتها فوق سريرها ـ وكانت الجدران من قبل عارية ـ وبدأت الشعور بالتحسن تدريجيا.

اشترى أبوها سمكة وقار كبيرة، دخلت الأم لتنظيفها ثم قطعتها إلى ثلاثة أجزاء استعدادا لقليها. قرب العصر جلسوا على المائدة وأمامهم أطباقهم، الأب والأم وابنتهما الجميلة.

اختارت القطعة التي تشمل ذيل السمكة، وبدأت في تقطيع فصوصها

اللذيذة، وفيما هي تستعد لتناولها شعرت بسخونة الوجه وبالتنميل في أطرافها، فاستأذنت، دخلت حجرتها، تعمدت أن تقف أمام المرآة.

كان وجهها ممتقعا، تشوبه صفرة، ويداها ترتعشان، ولما بدأ الصفير يدوي في أذنيها صممت أن تبقى متماسكة، ورفضت رفضا باتا أن تطيع الأمر الصادر لها بالصراخ، بل عمدت للالتصاق بالأرض، وترك مقعدها.

قبضت على خشب المسندين، وقاومت بكل قواها، ولما علا الهدير، طوحت رأسها، جرت باتجاه النافذة. اقتربت من الحافة وأمسكت بزهر ياسمينة كانت تطل من أصيص زرع، قائلة لنفسها: لن تنال مني هذه المرة.

ظل الصراع دائرا في الحجرة شبه المظلمة، ولما ضغطت بإصبعها زر النور شعرت بالتماسك أكثر من قبل، لمحت خيط نور واهتزت الأشياء لكنها سمعت صوت دندوشة يخبرها أنه معها، يساندها حتما ، وسوف تكون بخير.

تحاملت على نفسها وهي تفتح دولابها وتجذب ثوبا أخضر كانت ترتديه في طفولتها. شعرت معه بالأمان. دسته في صدرها بين النهدين، وأحست بتحسن وراحة.

سكنت قليلا، ورأته ثانية يتوعدها بالموت، رفعت وجهها ولم تخف، لقد أحست بأن شخصا يقف في ظهرها ويساندها : دندوشة.

أحست بالعفريت يهرب من الحائط الذي شقه، وجاء منه خفية. لما

تأخرت زينب هانم قلقت أمها عليها، خبطت الباب، ودخلت، وجدتها تبتسم : لقد ذهب يا أمي. لم ينجح في اقتحامي هذه المرة.

جلست مرة أخرى على المنضدة، تناولت ذيل السمكة، فصصت بقية اللحم، عصرت عليه ليمونة، ووضعت بعض الفلفل والملح. ملأت الملعقة بالأرز المفلفل. كم كان الطعام لذيذا هذه المرة.

قال لها أبوها لطفي الفيومي وهو يسري عنها : سنخرج هذا المساء لزيارة عمك، ابنه يريد الاطمئنان عليك.

قالت له، وهي نصف شاردة : سأزور الطبيب الساعة السابعة مساء. عندي جلسة.

ضحكت وهي تضع الأشواك في طبق أمامها. كانت متلهفة كي تخبر طبيبها أنها قد نجحت هذه المرة في قهره وإبعاده.

لما جلست لاحتساء الشاي في مقعد قرب النافذة المفتوحة شراعتها، غمرتها سعادة وأحست بكونها خفيفة. لم يكن هناك ما يبرر ذلك، فقط شعرت بخفقان قلبها، وكان الشاي له طعم النعناع البري.

٢٧ / ٤/ ٢٠١٨

موسم صيد اليمام

قبلة على الجبين، ربما تكون آخر ما فكرت فيه، وهي تودعه حيث محطة القطار، يطل من النافذة، ويلوح لها.

قالت لها السجانة : أنت الوحيدة بالعنبر، التي ترسم يمامات على الحائط، غيرك يقطع الوقت في الدندنة، والغناء، وتدخين السجائر. ثم أنك وديعة، لا تدخلين أي شجار.

كانت تعرف أن تهمتها تجعلها في مرتبة أعلى من زميلاتها لكنها لم تستغل ذلك، وقررت أن تعيش صامتة، فلا ترد على أي سؤال، ولا تقبل زيارة قريب أو صديق.

إنها تشعر أن عقابها يكمن في عزلتها، وهي فتاة السينما التي لعبت أدوار الخير دائما، فتطابق الأصل مع الصورة.

حين طعنته بمدية في قلبه كانت كي تبعده عن غريمتها، لكن النصل المسنون استقر في حنايا الصدر، تسلل بين الخلايا، فقطع الأورطي.

قبلتها وهي تودعه كانت، وهي شاردة. ترى كيف تعيش تلك الأشهر

بدونه ؟ رأته يخرج رأسه ويضحك فيما هي تمسح بأطراف أناملها دموعها المدرارة.

لم تكن تجيد العزف على البيانو لكنها تستمتع بالصوت الرنان، وهي تنقل يديها فوق الأصابع البيضاء والسوداء. فكأنها تقفز برشاقة بين النقيضين.

كانت مغرمة به، أوهمها أن الدنيا من غيرها لا معنى لها، وفي غمامة الليل رأته يحتضن (س) ويعتصر خصرها رغم نحوله.

كانت تعرف انه يبكي عندما تغيب عنه، وفي لحظة الانكشاف المروع وجدت قلبه يتقافز بين ضلوعه والأخرى تعتصر شفتيه، وهو مستسلم لها تماما.

اللون الأبيض والشرود الذي سكن العينين، وهي تجلس بمفردها عند حافة سريرها وتستعد لنوبة التفتيش.

قال لها مأمور السجن الطويل، وهو يتفقد العنبر بكل دقة : آخر ما كنت أتوقعه أن تكوني هنا.

قلبت عباراته في ذهنها، شعرت بالضياع وهو يتأملها مثل فأر وقع في مصيدة، وهو يقضي الوقت في نخسها بعصا رفيعة، تنتظر أعواما من العزلة.

فتح البوابة الحديدية ، جاء بها إلى مكتبه، أخرج المسدس من جرابه، وضعه على مكتبه، سألها أن تحكي الحكاية من أولها. أعطته ظهرها محتجة، وأمعنت في الصمت.

نظر إلى جمالها الآسر وهو يكاد يضيع بعد أسابيع السجن الأولى، أرسل الصول كي يحضرها، فكررت الامتناع، وحين مد يده كي يلمس صدرها، عوت كذئبة جريحة، لاحظ أن دموعها كانت متحجرة في المآقي.

كشافات الأضواء الملونة كانت ترهق عينيها، والروائح الباريسية الثمينة تكاد تكتم أنفاسها. بعد كل مشهد كانت تخرج من" البلاتوه " لتلتقط أنفاسها الهاربة، والأثواب الحريرية التي ترتديها تشعرها أكثر بالعبودية، لذا حين تنتهي تسرع كي ترتدي الثوب القطني الرقيق بلونه الفستقي الرائق.

حين كان يستعد للذهاب إلى الجبهة في قطار السويس تعلقت بعنقه، أفلتته بصعوبة وكانت النجوم الثلاثة منسوجة من التيل الزيتي، وليس من النحاس الأصفر.

ـ هل يوجد بالسويس سيارة تأخذني إلى جبل عتاقة؟

ـ اركبي وضعي حقيبتك حول عنقك.

ـ لماذا، والدار أمان؟

ـ في أي لحظة يمكن أن نتعرض لغارة معادية.

ـ لا تخف. لن تجدني منزعجة.

ـ أنت وكيفك.

السيارة تسير ومحركها يزمجر، وغراب المياه حوله عساكر بفانلات حمالة يملؤون الجراكن البلاستيك. عساكر خلعوا البيادات، وبدوا بأرجل حافية.

لم تتمكن من مقابلته، فقد منعتها سرايا الشرطة العسكرية ؛ لحرج الموقف، وقد عادت في عربة جيب لقائد كتيبة كان ينزل إجازته الميدانية فأوصلها إلى حي المعادي.

خرج بعد انتهاء الحرب، وفي قلبه ورع وتقوى لم تكن تتخيلها، زهد النساء والشاي والمقهى. عاش في البلكونة يتفرس السحب التي تمر فوق رأسه قادمة من اقصى الشمال.

لا تعرف كيف تمكنت (س) من الإيقاع به في شباكها. لم تكن جميلة بأي حال. لعلها كانت الممرضة المخلصة التي تقدم له الدواء في موعده. وقد خرج بعاهة في قدمه ولم يكن قد بتر قدمه اليمنى بعد.

ربما اتكأ عليها، وبتوالي الاقتراب الحثيث منها تعود سخونة جسدها فاستسلم للغواية : لم يعترف لي بذلك لكنني فهمته.

وقد فتكت به في اللحظة التي تصور فيها أنها قد ابتعدت عنه، وبحثت عن خلاصها.

ـ دعني أقص عليك حكاية؟

ـ لا حاجة لحديث يحمل حكمة ما.

ـ ربما تندم لو لم تسمعني؟

ـ انتهى كل شيء.

كانت الحافة المسنونة داخل حقيبتها، وخطاباته ملفوفة في شريط من الستان الأزرق. قال لها بعينيه: لم أعد لك.

هكذا انحنت مرة واحدة، مدت يدها بالمدية،دستها في المكان الذي تعرف ان به القلب. في يسار كل جسد يقبع القلب بغرفه الأربعة.

ـ آه.

حين انبثق الدم كانت حربها قد انتهت. جرت(س) نحوها، اشتبكت معها بعنف، أسقطتها أرضا، هجمت عليها مثل اللبؤة ومزقت شعرها.

قال لها المحقق وهو ينظر بحدة في عينيها: لماذا فعلت ذلك؟

ـ خانني.

ما مفهوم الخيانة وهي التي خانها حدسها فتسربت الأيام من بين أصابعها والرجل يعرج وقدمه تلامس أرضا كان يتحرك فيها بحرية قبل إصابته.

أرادت (س) أن تدس لها السم في الطعام فتنبه الحراس. وضعوا الطعام لكلب العيادة فأكله ونبح نباحا مخيفا قبل أن يسكن جسده.

ـ مات مسموما.

السحب الرمادية تبصرها خلال فترت الفسحة وهي ساعة واحدة في اليوم. تشبك أحلامها بكابوس يزورها كل ليلة حيث قنابل الألف رطل تدك حيها فيسقط عشرات القتلى فيما يتكدس الجرحى في العنابر. تهب من نومها صارخة : تم الحكم عليك بالمؤبد. ما أنقذك أنك استعنت بمحام شاطر.

ـ حكم الإعدام يناسبني أكثر.

ـ لديك فرصة للاستئناف والنقض.

ـ أشياء لا تهمني.

ـ فكري بهدوء.

عندما وقفت على رصيف طفولتها رأت نفسها تغني بصوت مرح وبريء :" يمامة بيضا.. ومنين أجيبها.. طارت يا نينة.. عند صاحبها".

ياه. موسم صيد اليمام قد بدأ منذ وقت مبكر، واليمام لا يكف عن الطيران، ولا الدوران، والفخاخ في الأركان الأربعة.

قالت (س) وهي تتشفى فيها بجلستها الخليعة في مكتب المأمور: كنت أريد أن أراك قاتلة.

لماذا كانت تشعر شعورا متزايدا أن القبلة على الجبين كانت فاترة، وبلا أي معنى ولا حرارة؟

ـ يطير اليمام بلا أفق. وتسقط قطرة دم من الجناحين المفرودين في السماء المبرقشة بالغيوم.

٢٠١٨ /٤ /٢٨

فهرس

الموضوع	الصفحة
حذاء بنفسجي بشرائط ذهبية	٧
مصابيح مطفأة	١٤
التجريدة	٢٣
كلب أسود	٣١
منتهى	٤٠
الرصيد	٤٨
نوجا	٥٥
قطط محشوة بالقطن	٦٣
سلوى	٧٠
الشرسة	٧٥
الكمين	٨٢

باكو بسكويت ٨٩
في الفرن ٩٣
مقهى السلطان ٩٨
ذيل سمكة ١٠٥
موسم صيد اليمام ١٠٩

الإصدارات

القصة القصيرة :

ـ خوذة ونورس وحيد، دار سما،٢٠٠١.

ـ أرجوحة، مركز الحضارة العربية،٢٠٠١.

ـ كيف يحارب الجندي بلا خوذة ؟،المجلس الأعلى للثقافة،٢٠٠١.

ـ انتصاف ليل مدينة ، مجموعة قصصية ، اتحاد الكتاب، ٢٠٠٢.

ـ دفتر أحوال، كتب عربية للنشر الالكتروني، ٢٠٠٥.

ـ شمال.. يمين ، سلسلة إبداعات شرق الدلتا، أبريل ٢٠٠٧.

ـ مكابدات الطفولة والصبا ، دار الكنوز الأدبية، بيروت، يوليو ٢٠٠٧.

ـ صندل أحمر، مجموعة قصصية، دار فكرة للنشر والتوزيع، أكتوبر ٢٠٠٨.

ـ قبلات مميتة، دار أكتب للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٩.

ـ هوا بحري،، دار فكرة للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.

ـ الأبواب، دار هباتيا للنشر، بالتعاون مع مركز عماد قطري، مايو ٢٠١٣.

ـ جبل النرجس، دار الأدهم للنشر والتوزيع، يونيو ٢٠١٣.

ـ حمام يطير، دار الأدهم للنشر والتوزيع ، ٢٠١٣.

ـ اللمسات، دار الأدهم للنشر والتوزيع ، ٢٠١٥.

ـ الأستاذ مراد، إقليم شرق الدلتا الثقافي، المنصورة، أبريل ٢٠١٦.

ـ أتوبيس خط ٧٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٩.

الرواية :

ـ رجال وشظايا ، الهيئة العامة للكتاب،١٩٩٠.

ـ ظل الحجرة، مركز الحضارة العربية،٢٠٠١.

ـ وميض تلك الجبهة، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٨.

المدونات والمذكرات:

ـ البيت القديم، الهيئة العامة للكتاب، سلسلة " مدونات عصرية "، ٢٠١٥

حوارات :

ـ مواجهات،مديرية ثقافة دمياط،مارس ٢٠٠٠.

ـ تقاطعات ثقافية،مديرية الثقافة بدمياط،مارس ٢٠٠١.

مراجعات :

ـ انكسارات القلب الأخضر، قصص عبد العزيز مشرى، سلسلة آفاق عربية، مايو ٢٠٠٣.

أدب الطفل :

ـ الحكيم وحماره ، سلسلة عين صقر،هيئة قصور الثقافة،١٩٩٩ . (تلخيص كتب مشهورة).

ـ بستان فنون ، ديوان شعر، سلسلة كتاب قطر الندى، القاهرة، ٢٠٠٦. (أغاني للطفل).

ـ القرش الضحوك، مجموعة قصصية، كتب الهلال للأولاد والبنات، العدد ٣٨١، فبراير ٢٠١٦.

ـ المصوب البارع، مجموعة قصصية، كتب الهلال للأولاد والبنات، العدد ٤٠١، أكتوبر ٢٠١٧.

دراسات :

تأملات في شعر العامية، سلسلة إصدارات الرواد، ٢٠١٢

الشعر :

ـ الخيول، مديرية الثقافة بدمياط،سبتمبر ١٩٨٢ .

ـ ندهة من ريحة زمان،الهيئة العامة للكتاب،١٩٩١ .

ـ ريحة الحنة،مديرية الثقافة بدمياط،١٩٩٨ .

ـ نتهجى الوطن في النور،هيئة قصور الثقافة،إبريل ٢٠٠٠ .

ـ سجادة الروح، إقليم شرق الدلتا الثقافي،مايو ٢٠٠٠ .

*** تراجم:**

ـ مصطفى الاسمر. تجربة أدبية وشهادات، كتاب الآباء. إقليم شرق ادلتا الثقافي، نوفمبر ٢٠١٣.

ـ فاروق شوشة. المسيرة والعطاء. كتاب الآباء، إقليم شرق الدلتا الثقافي، نوفمبر ٢٠١٦.

كتب خصصت عنه :

١ ـ أصدر عنه الناقد جمال سعد محمد، كتاب " طاقة اللغة وتشكيل المعنى" عن دار الإسلام للنشر، سنة ٢٠٠٢.

٢ ـ أصدر عنه ابراهيم حمزة كتاب " أنشودة نورس وحيد. سيرة وتحية " عن موقع القصة العربية بالتعاون مع دار سندباد، سنة ٢٠١١.

٣ ـ صدر عنه كتاب " سمير الفيل.. كاتب الحارة الشعبية ومؤرخ الفقراء"، إعداد وتقديم : فكري داود، سلسلة الرواد، إقليم شرق الدلتا، ٢٠١٤.

سمير الفيل

ـ قاص وروائي وشاعر مصري، ولد ويعيش في مدينة دمياط (مواليد ١٦ يناير ١٩٥١)..

ـ نشر رواياته الأولى عن أدب الحرب، منها " رجال وشظايا"، " وميض تلك الجبهة "، كما نشر رواية " ظل الحجرة ".

ـ نشر ١٤ مجموعة قصصية في القاهرة وبيروت، من بينها : " كيف يحارب الجندي بلا خوذة ؟ " ، " صندل أحمر "، " جبل النرجس "، " شمال.. يمين"، " اللمسات "، " حمام يطير"، " مكابدات الطفولة والصبا "،" أتوبيس خط ٧٧ ".

ـ قدم دراساته النقدية في أغلب الدوريات العربية المتخصصة، منها : " فصول "، " أدب ونقد"، " إبداع "، " الثقافة الجديدة "، " المجلة "، " بيادر"، " الجسرة "، " الدوحة"، " النص الجديد "، وغيرها.

ـ كرمته الدولة في مؤتمر أدباء مصر، الدورة ١٧، الإسكندرية، بدرع الهيئة العامة لقصور الثقافة.

كرمته مكتبة الإسكندرية في " مؤتمر القصة القصيرة "، ديسمبر ٢٠١٣.

كرمته ثقافة الرقة في مهرجان العجيلي للرواية ، ٢٠٠٦.

- كرمته الشارقة في المهرجان القرائي للطفل، مارس ٢٠١٤.

ـ صدرت بالولايات المتحدة الأمريكية "هيوستن - تكساس" " أنطولوجيا القصة العربية " تضمنت نصوصا له، ترجمة الدكتور عبد الله الطيب.

ـ شارك بأبحاثه في أغلب دورات ملتقى القاهرة للرواية العربية.

ـ كتب أشعار عدد كبير من العروض المسرحية بالقاهرة ودمياط وبورسعيد.

ـ مؤسس القافلة الثقافية " في حب نجيب محفوظ "، والتي قدمت ١٠ دورات بمحافظة دمياط.

جوائز:

ـ جائزة موبل لأدب الطفل ١٩٩٠.

ـ جائزة أبها الثقافية ١٩٩٢.

ـ حاز جائزة الدولة التشجيعية في القصة القصيرة ٢٠١٦.

ـ جائزة يوسف أبورية ـ اتحاد الكتاب، ٢٠١٧.